

مَدَّيْخَلُ الْمَتَارِجِ الْمَغْرِبِيِّ

تَأَلَّفَتْ

الْعَلَّامَةُ الرَّدِّيْبُ

عَبْدُ اللَّهِ كَنْوَنُ الْحَسَنِي



دار الكتب العلمية

Dar al-Kutub al-Ilmiyyah

DKI

أُسِّسَتْهَا كَتَابُوتُ بَيْرُوتَ سَنَةِ 1971 بَيْرُوتَ - لُبْنَانُ

Est. by Mohammad Ali Baydoun 1971 Beirut - Lebanon

Établie par Mohamed Ali Baydoun 1971 Beyrouth - Liban



http://www.al-ilmiyah.com info@al-ilmiyah.com sales@al-ilmiyah.com baydoun@al-ilmiyah.com

الكتاب : مدخل إلى تاريخ المغرب

Title : MADHAL ILĀ TĀRĪḤ AL-MAGRIB

التصنيف : تاريخ

Classification: History

المؤلف : العلامة الأديب عبد الله كُنُون الحسني

Author: Abdellah Guennoun Al-Hassani

الناشر : دار الكتب العلمية - بيروت

Publisher: Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah - Beirut

عدد الصفحات 168

قياس الصفحات 14 x 20 cm

سنة الطباعة 2017 A.D. - 1438H.

بلد الطباعة لبنان

الطبعة : الأولى من دار الكتب العلمية

Edition : 1st from Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah - Beirut

**Dar Al-Kotob
Al-ilmiyah**

Est. by Mohamad Ali Baydoun
1871 Beirut - Lebanon

Aramoun, al-Quebbah,
Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah Bldg.
Tel : +961 5 804 810/11/12
Fax: +961 5 804813
P.O.Box: 11-9424 Beirut-Lebanon,
Riyad al-Soloh Beirut 1107 2290

عزمون القبة، مبنى دار الكتب العلمية
هاتف: +٩٦١ ٥ ٨٠٤٨١٠ / ١١ / ١٢
فاكس: +٩٦١ ٥ ٨٠٤٨١٣
ص.ب: ١١-٩٤٢٤ بيروت
رياض الصلح-بيروت ١١٠٧٢٢٩٠

طبع بإذن خاص
من مؤسسة عبد الله كُنُون الحسني
للثقافة والبحث العلمي

جميع الحقوق محفوظة
2017 A.D. - 1438H.



ISBN-13 978-2-7451-8758-1

ISBN-10 2-7451-8758-9

9 782745 187581

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

لا يحسب أحد أننا نقدم له تاريخاً للمغرب، فما مر بخلدنا أن نحاول هذه المحاولة الجريئة ونحن نعلم ما يكتنفها من صعوبات، ونرى ما يعترض في طريقها من عقبات. ولكن هذا مدخل لتاريخ المغرب رأينا أنفسنا مضطرين لكتابته بسبب ما نعالج من تعليم النشء على أصول التربية الوطنية الحديثة حيث لم نجد ما نسند به هذا الخصاص في برنامج الدراسة الابتدائية في مدرستنا التي أسسناها في فاتح قعدة عام 1355.

وذلك إن الموجود من كتب تاريخ المغرب إما مؤلفات ضخمة وعلى الأسلوب القديم لا تصلح لهذا الغرض، وأما كتب سلسلة على حسب السنوات من غير إعادة ما تضمنته الأجزاء السابقة في الأجزاء اللاحقة فالتلميذ يبقى مطالباً باستحضار ما في الجزء الأول والثاني والثالث إلى آخره ليتمكن أن يجوز الامتحان في السنة النهائية. وفضلاً عما في ذلك من التعب فإنه مخالف لبرنامجنا الذي يأتي تاريخ المغرب فيه آخراً في السنة النهائية، وأما السنوات الأخرى

فيدرس فيها التاريخ العام.

وعلى هذا فالمدخل تاريخ مدرسي ابتدائي معمول لقسم الشهادة الابتدائية في مدرسة خاصة. نعم لا يمنع أن يستعمل في غيرها من المدارس التي وافق برنامجها، خصوصاً وقد اشتمل على مميزات قل أن توجد في غيره.

(1) منها أنه يبتدئ بتاريخ ما قبل الإسلام خلاف الكتب الموجودة التي تبتدئ كلها بتاريخ الفتح الإسلامي.

(2) ومنها أنه إنما يؤرخ عهود المجد لكل دولة ويجتنب ذكر الفتن والاضطرابات الداخلية التي تتمثل صحفاً سوداً في نظر التلاميذ الصغار.

(3) ومنها أنه يعني كثيراً بتصوير الحالة الاجتماعية والأدبية في كل عصر من العصور، ولا يقتصر على سرد تاريخ الملوك مجرداً عن النظر في حالة الشعب الذي هو المؤرخ في الحقيقة لا الملوك.

(4) ومنها أنه يحقق في بعض الوقائع التاريخية ويوجه نظر التلميذ إلى ذلك التحقيق لئلا يميل مع من مالوا عن الصواب في ذلك لغفلتهم أو لعدم تهمتهم بالبحث الموصول إلى المطلوب، وذلك كما في مسألة خصومة المنصور الموحدي وصلاح الدين الأيوبي وغيرهما.

(5) ومنها الاستعانة بالصور والخرائط التخطيطية على توضيح الآثار التاريخية والمعلومات الجغرافية إلى غير ذلك.

ومع هذا فإننا نكرر القول بأنه تاريخ مدرسي ابتدائي خاص فمن

شاء فليستعمله من غير توهم أننا عملناه ليُفرض على أحد، ومن شاء
فليستفد منه مع التفضل بذكر مصدر الفائدة حرصاً على التعاون
الأدبي المنشود، والسلام على كل من وقف عليه من الزملاء
الأفاضل.

المؤلف

- الجغرافية -

المغرب وطننا العزيز يقع في غرب شمال إفريقيا بين الدرجة 28 و36 عرضاً من جهة الشمال، والدرجة 8 و13 طولاً من الجهة الغربية، ويحد شمالاً بالبحر الأبيض المتوسط، وشرقاً ببلاد الجزائر، وغرباً بالمحيط الأطلسي، وجنوباً بالصحراء الكبرى.

مساحته: 450,000 كيلومتراً مربعاً تقريباً، وعدد أهله يجاوز 8 ملايين.

عواصمه: فاس ومراكش في القديم والرباط الآن.

وموانئه: طنجة، وأصيلا والعرائش، والقنيطرة، والرباط، وسلا، والدار البيضاء، والجديدة، وآسفي، والصويرة، وأكادير، وكلها على المحيط الأطلسي. وتطوان، وسبتة، ومليلية على البحر الأبيض المتوسط، إلا أن الأخيرتين هما من أملاك إسبانيا اليوم.

والمغرب جزءاً لا يتجزأ من إفريقيا الشمالية التي تجمعها وحدة الجنس واللغة والدين، فضلاً عن وحدة الجيولوجيا التي يقوم الأطلس الجبار حارساً عليها منذ دخول الأرض، وكان العرب يسمون هذه البلاد بالمغرب الأدنى وهو تونس سمي بذلك لأنه أقرب إلى بلاد العرب، والمغرب الأوسط وهو الجزائر، والمغرب الأقصى لأنه أبعد هذه الممالك عن بلاد العرب.

أما جغرافيو اليوم فيقسمونها إلى أربعة أقطار، طرابلس الغرب وتونس والجزائر والمغرب، وبذلك غلب على كل قطر اسمه الخاص وبقي المغرب حاملاً للاسم الجامع، على أن بعضهم يسمي المغرب باسم عاصمته الجنوبية مراكش وهذا الاسم ليس بمعروف في داخلية البلاد.

أصول السكان

سكان المغرب على خمس طبقات: البربر وهم السكان الأصليون والعرب الفاتحون، ثم الطارئون بعد ذلك في أوقات مختلفة زمراً أو أفراداً والأندلسيون وهم مهاجرة الأندلس الذين جلوا عنها بعد استيلاء الإسبان عليها، والزنوج وغالبهم قديم المغرب على عهد المنصور الذهبي بعد فتحه السودان، والسنكال، واليهود وهم نحو المائة ألف أكثرهم ورد المغرب بعد نفيهم من إسبانيا ودخلوا في ذمة المسلمين.

البربر

وقد اختلف في أصل البربر اختلافاً كثيراً، واسمهم دليل على جهل أصلهم لأنه كان يطلق على الأقوام الذين لا تعرف لغتهم. ويقول ابن خلدون إن إفريقيش لما وصل إلى هذه البلاد خاطب أهلها بقوله ما هذه البربرة؟ على أن هذا الاسم موجود في غير المغرب كالبربرة في النيل وفي البحر الأحمر، وأهل الأطلس لا يسمون أنفسهم بهذا الاسم، وإنما يدعون أنفسهم الأمازيغ، ومعناها الأحرار، ولغتهم يعبرون عنها بتمازيغت، وهذا لفظ قديم يوجد عند الكتاب الأوائل كهذا (مازيست) أو ما يقارب ذلك.

من المعلوم أن أكثرية سكان المغرب من البربر. ولكن مع ذلك فإن أصولهم لا تزال مجهولة، ويصعب على الإنسان أن يربطهم

بجنس من الأجناس الذين سكنوا إفريقيا، والظاهر من التحقيق العلمي أننا بإزاء عناصر مختلفة لا يمكن تحديدها، ولكن الأمر الغريب الذي يستلفت الأنظار بالخصوص، هو اتفاق هذه العناصر في كثير من الخصائص وطبيعة التكوين مع العنصر العربي. ولذلك فالواجب أن لا يتعب الإنسان نفسه في التمييز بين أفراد العنصرين وإن فعل فإن كثيراً من أتعابه تذهب سدى.

ومن ثم قيل أن أصل البربر من العرب. وعليه كثير من المؤرخين والباحث المسلمين، إلا أن ابن خلدون زيف هذا القول وزيف أيضاً القول بأنهم بقية من قوم جالوت، وقال: الحق الذي لا ينبغي التعويل على غيره في شأنهم أنهم من ولد كنعان بن حام بن نوح عليه السلام.

وعلماء الأنثروبولوجيا يقولون أن غالب البربر هم من الشخص ذي الجمجمة الطويلة، أسود الشعر والعين معاً، وهو نفس الموجود في أوروبا الوسطى وإسبانيا وإيطاليا والجنوب الغربي من فرنسا، وهناك شخص آخر كثير الشبه بأهل مصر كما ثبت من الحفريات ومن مقارنته بالفلاحين المصريين الحاليين وهو طويل القامة دقيق الملامح، والظاهر أن أصله من الشرق، كما أن هناك جنساً آخر أشقر اللون أزرق العين يعيش بين هؤلاء الدهم والسمر وهو بدون شك ليس منهم، ويذكرنا بالأصل الجرمانى والنورماندي، وهذا هو الموجود في جبال الريف.

هذا ولا يزال العلماء يعثرون على أجناس جديدة، وهذا

الاختلاط فيه قديم وهو سبب اختلاف أقوال الكتّاب فيه، وعلى كل فإن شمال إفريقيا والمغرب بالخصوص طريق رئيسية مرّ بها كثير من الرّحالة والفتاحين من مختلف الأجناس من أوروبا وآسيا فلا يمكننا أن نفرض جنساً ونرفض آخر في تعيين أصل السكان البربر بالمغرب، وهذا النظر العلمي لا يعكّر علينا في اعتبار البلاد المغربية بلاداً عربية، لأن الواقع أنه بعد الفتح العربي وانتشار الإسلام استعرب البربر وتأكدت الصلة بينهم وبين العرب حتى لم يبق فارق ما بين الجنسين كما تقدم.

واللغة البربرية على اختلاف لهجاتها كثيرة الشبه باللغات السامية، ولا سيما العربية، وإن كان العلماء يجعلونها من أصل مخالف، وهذا دليل آخر على مزيد التشابه والاتصال الشديدين بين العنصرين.

والآن وقد أصبحت البربرية ممزوجة بكثير من الألفاظ العربية، وصار كثير من البربر يتكلمون البربرية ويمزجونها بالعربية، فضلاً عن الذين نسوا لغتهم بالمرّة وصاروا لا يعرفون إلا العربية كبعض العرب الذين صاروا لا يتكلمون إلا البربرية.

فهل ينتشر التعليم بادية وحاضرة حتى يقضي على جميع هذه اللهجات المختلفة وتبقى العربية وحدها لغة التخاطب في المغرب؟

المغرب في عهد الفنيقيين

منذ القرن الثاني عشر (ق.م) جاء الفنيقيون وهم من الكنعانيين

سكان سوريا إلى بلاد المغرب فأسسوا مراكز للتجارة على شواطئ البحر ولا سيما بالحرر والرسي الساحلية التي يسهل الدفاع عنها إذ كانوا أمة تجارية لا شأن لها بالحروب، وكانت التجارة بينهم وبين المعاربة بطريق التبادل فيأخذون منهم الصوف والجلد والعاج وريش انعام والماشية ويدفعون لهم الثياب والأسلحة والخمور وأواني الزجاج ولفخرف.

ومنذ القرن الثامن (ق.م) شرت قرطاجنة وهي المدينة العظيمة التي أسسها الفنيقيون على الخليج التونسي نفوذها الأدبي على المغرب وحاربت اليونان في البحر الأبيض المتوسط وانتصرت عليهم وبذلك صارت دولة بحرية، ولكن نفوذها الفعلي في المغرب لم يحاور مع ذلك السواحل، أما الدواخل فقد كانت تحت حكم أمراء من أهل البلاد وفي العال كالت العلاقات بين اطرفين ودية بل كانت هناك روابط عائلية بين الأمراء الأهالي وأشراف القرطاجنيين.

وتأثر الأهالي بالقرطاجيين تأثراً بليغاً في الحضارة والعمران وكان مما أخذوه عنهم فن الغراسة واستخراج المعادن وعصر الزيتون والخمر وغير ذلك.

ولم تكن هناك حروب مهمة بين البربر والقرطاجيين لأن هؤلاء لم يكونوا يتدخلون في شؤون الأهالي ولا يستثيرون عصبهم بفعل أو قول، وإنما كان الجد يثور في بعض الأحيان لأشياء خاصة وكان الرومان يحرضون البربر على القرطاجيين ويجيشونهم ضدهم رغبة

في القضاء عليهم والحلول محلهم في استغلال حيرات البلاد ولم يرل ذلك دأبهم حتى بلعوا إلى مرادهم من ذلك.

الرومان في المغرب

في سنة 146 (ق.م) سقطت قرطاجنة في يد الرومان وسارت روما مع الأهالي بعكس سيرة قرطاجنة في إذلالهم واستغلال بلادهم وكانت تسمي الملوك الأهالي بالملوك الأرقاء، أما الشعب فلم يكن أفراده سوى عبيد لسادات روما المستعمرين.

ولم يستولِ الرومان على الربر إستيلاءً حقيقياً إلا في عهد كلود قيصر سنة (42م) حيث قسموا الشمال الإفريقي إلى مقاطعات وجعلوا فيها حاميات من الجنود تحافظ على نفوذ الرومان وكان المغرب من بين هذه المقاطعات يحمل اسم موريطانية الغربية وإن لم يبلغ نفوذهم فيه ما بلغ في الجزائر وتونس، وكانت ليكسوس على أحد منعطفات وادي لكوس وطجة أيضاً يحملان لقب المستعمرة الامبراطورية كما كان يقال لسلا: (سلا كلونيا) وفي نواحي مكناس كانت توحيد مدينة (فيلوبلس) التي لا تزال مآثرها قرب راوية مولاي إدريس وهي ذات مساحة واسعة ولا تزال بها مآثر الهيكل والتيترو وقوس البصر المشيد في القرن الثالث وأخيراً عشر فيها بدار سكي على كلب من نحاس مصنوع على شكل بديع.

وبالحملة فإن نفوذ الرومان كان محصوراً في الجهة الشمالية من



المنظران أعلاه يمثلان بعض الآثار الرومانية
في مدينة (فيلوبلس) والمنظر الأسفل
يمثل بعض أطلال البرج المسمى (أدمير كليوس)

المغرب ولم يجاور سلا قط على مصب نهر (بورقراق) وكان أقصى نقطة خاضعة للنفوذ الروماني هو المرج الواقع على 23 كيلومتراً من سلا وهو المسمى: (إدمير كليوس) ومع هذا عثر على بعض المآثر الرومانية بالأطلس المتوسط، وقد يعني هذا أن الأهالي المغاربة كانوا تأثروا ببعض مظاهر الحضارة الرومانية، وعليه فيصعب تمييز ما يرجع من هذه الآثار للرومانيين أنفسهم وما يرجع للأهالي، ولكن هذه الآثار كلما توغلت في الجنوب كانت أخشن بسبب بعد هذه الجهة عن الاتصال بالرومان.

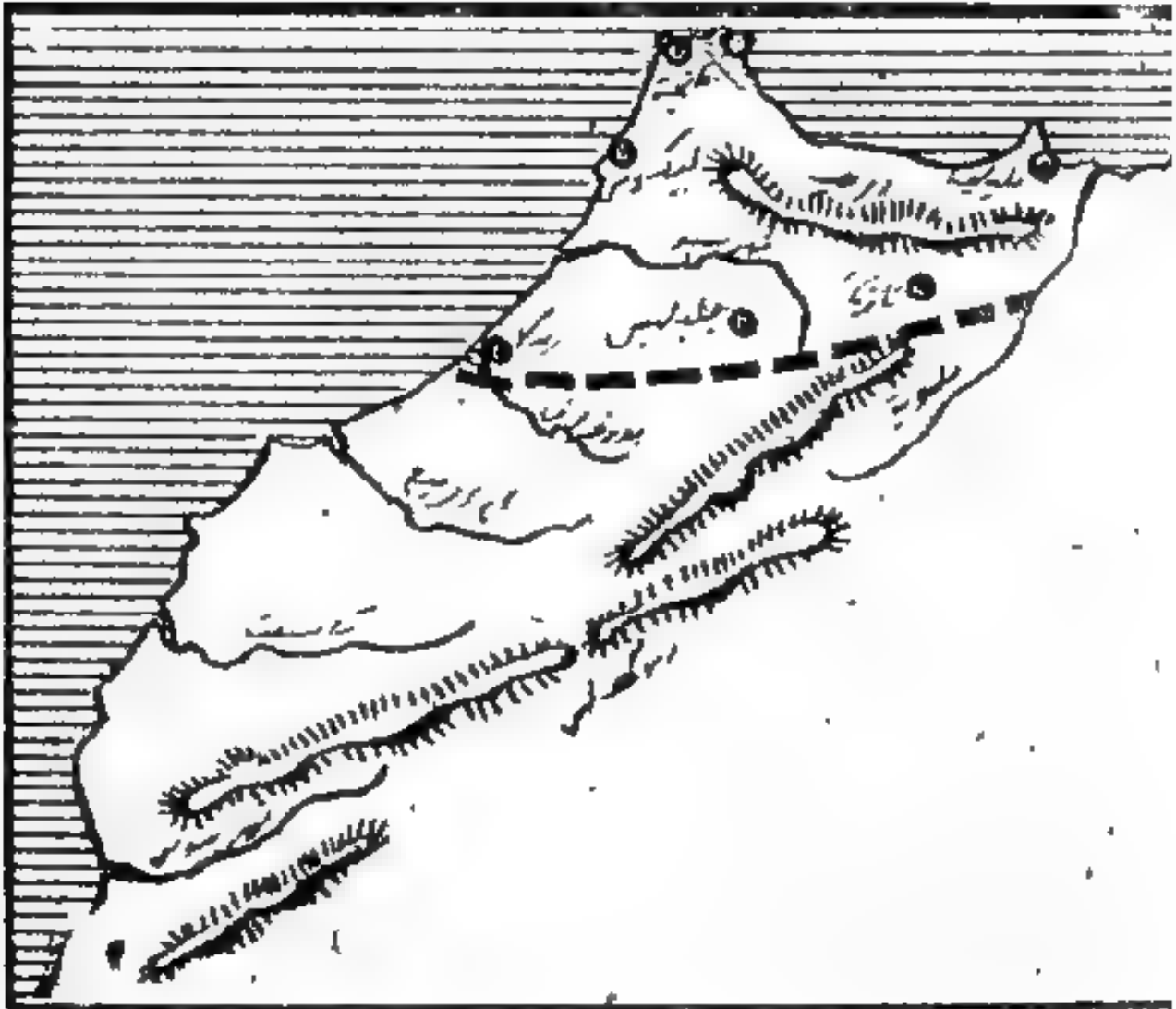
وكانت كل تجارة الرومان مع المغرب عن طريق إسبانيا، وكانت طححة على رأس طريق المغرب، وأكثر ما يأخذون من المغرب القمح، والریت، وبعض المواد الغذائية الأخرى والجلد والصوف والمواشي والحيل وبعض العقارات الطيبة، وكانوا يضربون على المغرب الصرائب الفادحة ويطلبون منه اجند أيضاً ولفرسان المعاربة مقام خاص بين جنود الامبراطورية التي كانت ضاربة على نهری الرین والدانوب ومما يدلک على مرید ما کان لهم من الاعتدال أن (ترجان) خلدھم معه فی تمثال ترجان بعد حرب داسي.

ورعماً عن جميع وحوه الانتفاع التي كانت لروما في لمغرب فإنها لم تكن تمكر في مصلحة الأهالي أصلاً، حتى أن موريطانيا الغربية لم تكن عندهم إلا مقاطعة مهمة عبر داخلية في النظام البياني بل لامبراطور يعين لها الوالي الذي يوب عنه في الحكم العسكري والمدني ويشرع لها القوانين أيضاً.

وبسبب الطم وحوار القوايين والاستعلال الدائم فإن الأمر لم يستتب في المغرب قط حيث أن رؤساء الأهالي كانوا حاملين أعلام الثورة دائماً.

ولذلك كن لزاماً على روما أن تضع بالمغرب قوة عسكرية كافية، وقد كانت الجنود تصل في بعض الأحيان إلى عشرة آلاف وكانت سلا من العرب وجبل زرهون من الشرق متصلين بسلسلة أرباح هي التي كانت تدفع غارة الأهالي.

ولكن لما أراد الله اصمحلال السيطرة الرومانية جعل ذلك على يدها فاعتنق الرومان الديانة المسيحية وتفرقوا فيها طرائق قدا حتى اقتتلوا واستعان بعضهم على بعض بالرببر الذين شفوا غليلهم من دماء أعدائهم، وأن الله يملئ على الظالم حتى إذا أخذه لم يفلته.



خريطة تمثل منطقة النفوذ الروماني بالمغرب

هجوم الوندال

في سنة 429م هجم الوندال على المغرب وهم قوم من البرابرة اكتسحوا أوروبا في القرن الرابع، واستقروا أخيراً بلاد إسبانيا التي يقال فيها (واندلسيا) سنة إليهم وكان دخولهم إلى المغرب باتفاق مع الوالي العام لروماني الذي أريد الانتصار بهم على حصومه في روما، فخسر بذلك مملكة وفقدت روما إلى الآن إمبراطوريتها الإفريقية، وكان احتلال الوندال المغرب وسائر الشمال الإفريقي سهلاً ميسوراً من جهة أن دخولهم أولاً كان باستدعاء ممن بيده مقاليد الأمور.

ثم إن البربر كانوا يفتحون الطريق أمامهم، وربما أعانواهم انتقاماً من أعدائهم الرومان وتخلصاً من حكمهم الممقوت.

ولكن الوندال كانوا أمة وحشية فأكثروا من النهب والقتل وتخرب العمران فلم يستهد المعارية منهم شيئاً إلا أنهم انتقموا لهم من أعدائهم الرومان شر انتقام.

الاحتلال البيزنطي

ثم في منتصف القرن السادس احتل روم ببرطة أهل الامراتورية الشرقية البلاد إذ أرسلوا قائدهم (بليرار) في أسطول صحم فطرد الوندال وحضمت إفريقيا بحكم القياصرة ولكن بفوذهم في المغرب كان ضعيفاً، إذ لم يستولوا على غير طمحة وستة وعند الصبح الإسلامي لم يبق هناك إلا منطقة سببة تحت قيادة الكونت حوليان الذي أعلن استقلاله، وسلمت بقية البلاد إلى أهلها، وقد عثر بجهات سوس على بعض مآثر يبرطة ولكن هذا لا يدل على امتلاك البيزنطيين لهذه الجهات بل إن الفن السوسي كان مقلداً للبيزنطي فحسب، وكالوندال لم يؤثر البيزنطيون في الأهالي تأثيراً مذكوراً لا من حيث العلم ولا من حيث الحضارة بل إن عهدهم كان أظلم من عهد الوندال وقد وصل فيه التدمير والخراب إلى أقصى حد وكانت المسيحية قد انتشرت في البلاد بحلافها ونزاعها فلم يفتأ القتال مستداً بين أتباعها وبين الوثنيين.

على أن الأهالي لم يقبلوا كثيراً على اعتناق الدين المسيحي ومن اعنقه مهم لم ينغلغل في نفسه خلافاً لما تعطيه كسابات الرهبان في ذلك العصر التي قد تغر الإنسان فيعلو أهمية كبيرة على هذا الأمر.

وقد بقيت الحاة على ما ذكر من الموصى إلى منتهى القرن السابع حيث سطع على البلاد نور من الشرق هو نور الإسلام فنسخ ذلك الظلام وأعاد الاطمئنان إلى النفوس وبسط على الأرض السلام.

- أسئلة -

- (1) أين يقع المغرب من قارة إفريقيا وفي أي درجة من درجات الطول والعرض؟
- (2) ماذا يجاور المغرب من الجهات الأربع؟
- (3) هل من المغرب ما هو ممتلك لدولة أجنبية؟
- (4) ما هي أقسام إفريقيا الشمالية اليوم؟
- (5) ما هي عناصر السكان بالمغرب؟
- (6) هل يرجع أصل البربر إلى جنس واحد معروف؟
- (7) لماذا يصعب التمييز بين العرب والبربر؟
- (8) بعد احتلاط العنصرين وامتزاجهم بالمصاهرة وتكيفهم بحسب عقيدة التوحيد والشرعية الإسلامية والثقافة العربية هل يقال أن في المغرب سلالات متعددة غير لسلالة المغربية التي تكونت مع الأجيال من عناصر متماثلة في الخلق والمراح؟
- (9) لهجات النحاطب البربرية هي البقية الباقية من عوامل التفريق، فبماذا يمكن القضاء عليها؟
- (10) هل بين البربر والفريقين تقارب في السلالة؟

- (11) هل اصطهد الفينيقيون البربر كالرومان؟
- (12) وازن بين العهد الفينيقي والعهد الروماني واذكر أيهما كان خيراً للبلاد؟
- (13) هل استفاد المغرب شيئاً من لاحتلال الوندالي والبرنطي؟
- (14) ما وجه الشبه بين الحسين؟
- (15) ما الذي أنقذ البلاد من الموضى السياسية والاجتماعية لتي كانت تتخط فيها؟

الفتح الإسلامي

دخل العرب والإسلام إلى بلاد المغرب في خلافة يزيد بن معاوية إذ تم انضمام المغرب إلى ممالك الخلافة على يد عقبة بن نافع سنة: 62هـ وبقي المغرب الأقصى حاصعاً للخلفاء من بني أمية وبني العباس إلى أن دخله مولانا إدريس فأسس به لدولة الإدريسية، واقتطع المغرب عن سلطة الخلافة.

الدولة الإدريسية

كان المولى إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي ابن أبي طالب رضي الله عنه من الزعماء العلويين الذين لا يفتنون مطالبين بحقوقهم في الخلافة، وكانوا يلقون من العباسيين كالأمويين من قتل اضطهاداً كبيراً. وعلى أثر موقعة دارت فيها الدائرة على دعاة العلويين تفرق كثير من أنصارها في البلاد ومنهم المولى إدريس الذي قاده إلى المغرب مولاه راشد البربري فحل به على الرحب والسعة من رؤساء البربر ورعمائهم الذين ملكوه عليهم وبايعوه على الموت دونه، وذلك سنة: 172هـ.

وكان أول من بايعه قبيلة أوربة ورئيسها إسحاق بن عبد الحميد

الذي أكرم صيافة إدريس حين نزل عليه بمدينة وليلي (فيلو بوليس) قرب زرهون، وكانت هذه الفيلة ذات شوكة عظيمة وبأس شديد، ثم تتابع دخول القبائل في طاعته، فقام يعرو البلاد التي لا زالت لم تعتنق الإسلام أو لم يكر الإسلام تمركر فيها تمركرًا تامًا، فداست له سائر القبائل وقلت دعوته جميع الناس، وما أن فرغ من المغرب حتى تقدم لتلمسان ففتحها سنة 175هـ ودخلها ونظر في أحوالها وبنى بها مسجدًا، ثم عاد إلى وليلي قاعدة ملكه، وكانت حركته هذه هي القاضية على الوثنية والعقائد الزائغة في المغرب ولذلك يلقب رضي الله عنه بفتح المغرب، وإن كان المغرب قد فتح قبله بما يريد على قرن.

ولما بلغ خبر قيامه وانتصاراته المذكورة إلى هارون الرشيد ببغداد اعتم من أجله، وحعل يفكر في وسيلة للتخلص منه خوفًا من استفحال أمره وتقدمه إلى إفريقيا، والاستيلاء عليها، فأرسل له رجلاً من أهل المكر والدهاء يقال له سليمان بن حرير، ويعرف بالشماخ، فأتى إدريس في صورة المحالف على الرشيد حتى تمكن منه فسمه في قارورة طيب وخرج هارباً، فاقتفى راشد أثره في جمع من الفرسان فأدركه، ولكنه حماه أجله فأفلت.

ورجع راشد إلى وليلي ودفن المولى إدريس بمدينة زرهون الحالية، وكانت وفاته رحمه الله فاتح ربيع الثاني سنة 177هـ.

إدريس بن إدريس

ولد بعد وفاة أبيه بشهرين، وكان رؤساء القائل قد أجمعوا اتباعاً

لرأي راشد على انتظار وضع أمه الحامل حتى إذا كان لمولود ذكراً جعلوا إليه ملك أبيه تركاً بآل البيت، وإلا نظروا لأنفسهم من يولونه عليهم، وكانت أمه جارية بربرية اسمها (كنرة) فلما أتمت أشهر حملها وصعته غلاماً ذكراً أشبه الناس بوالده، فأخرجه راشد إلى الناس حتى نظروا إليه، فقالوا هذا هو إدريس بعينه، فسماه راشد باسم أبيه، وقام بأمره وأمر الرعية وكمله حتى فطم وشب، فأدبه أحسن أدب وأقرأه القرآن فحفظه وله من العمر 8 سنين، وعلمه السنة والعقده والحو والشعر والأمثال وسير الملوك، ودرّسه على ركوب الخيل والرمي بالسهام ومكائد الحروب، حتى إذا كملت سنّته إحدى عشرة، بايعته جميع القبائل المغربية بجامع مدينة ويلي وخطب الناس قائلاً فيهم بعد الافتتاح: أيها الناس: «إنا قد ولينا هذا الأمر الذي يضاعف للمحسن فيه الأجر وللمسيء الورر ونحس والله الحمد على قصد حميل فلا تمدوا الأعناق إلى غيرنا فإن ما تطلبونه من إقامة الحق إنما تحدونه عدا» فعجب الناس من فصاحته وثبات جأشه على صغر سنّه، وعلموا أن هذا الشبل من داك الأسد.

ولما استقام له الأمر قصدته الوفود من كل ناحية ومكان وفيهم وفود العرب من بلاد إفريقية والأندلس، فسر بوفادتهم وأحزل صلاتهم وجعلهم بطاته واتخذ منهم رؤساء حكومته، ولم تزل الوفود تقدم عليه من لعرب والبربر حتى ضاقت بهم مدينة ويلي، فعزم على بناء مدينة يسقى إليها بحاصه وحووده ووفود أهل دولته، فقر الرأي على بناء مدينة فاس، وشرع في ذلك عرة ربيع الأول سنة 192هـ.

- فاس -

حاضرة المغرب وأم مدنه ومركز الحركة العلمية والأدبية والسياسية والاقتصادية فيه، لم تزل منذ تأسيسها مهوى أفئدة الرحالة من كل جهة، ومن المحقق إن لم يرها لم ير المغرب، وأهلها أصحاب جدّ وعمل، وقد جلوا في ميادين العلم والصناعة والتجارة، وامتازوا بحب التجول في البلاد والمعصرة في طلب المال من وجهه الحلال، وفيها تلتقي جميع العناصر المتساكنة بالمغرب من بدو وحضر، وأهل الشمال والجنوب، وسكان الصحراء والتحوم السودانية، فصلاً عن أد بها معظم الأسر النيلة بالمغرب، والبيوت العلمية التي توارثت المجد منذ قرون.

وناحيتها من أنزه النواحي وأحصنها، صحيحة اهواء غريرة المياه كثيرة المواكه، متنوعة الثمرات، وقد تتخللها البساتين والربص فيما بين دورها ومساكنها لكثرة عيونها وجريان أنهارها، وهي وقعة بين ثنتين عظيمتين، ويشقها نهرها المسمى (وادي الجواهر) وإحدى عدوتيه تسمى عدوة لأندلس لنزول عرب الأندلس بها وهي أول ما اختط إدريس، والأخرى تسمى عدوة القرويين لنزول عرب القيروان بها، وقد بنى إدريس في كلتا العدوتين مسجداً للخطبة وسوقاً وعبر ذلك من المرافق العامة وسورها وحصنها، ثم اتسعت عمارتها بعد ذلك على عهد الدول المعاقبة بالمغرب، وكان بو مريس من أكثر الدول اعتناءً بها واهتماماً بتوسيع دائرتها، فسوا بها المدينة البيضاء

التي يقال لها (فاس الحديد) وحلّدوا بها مآثر حمّة من مدارس ومساعد تشهد لهم بعلوّ الهمة، والصانع المعربي بالمهارة والدوق الفني المهذب.

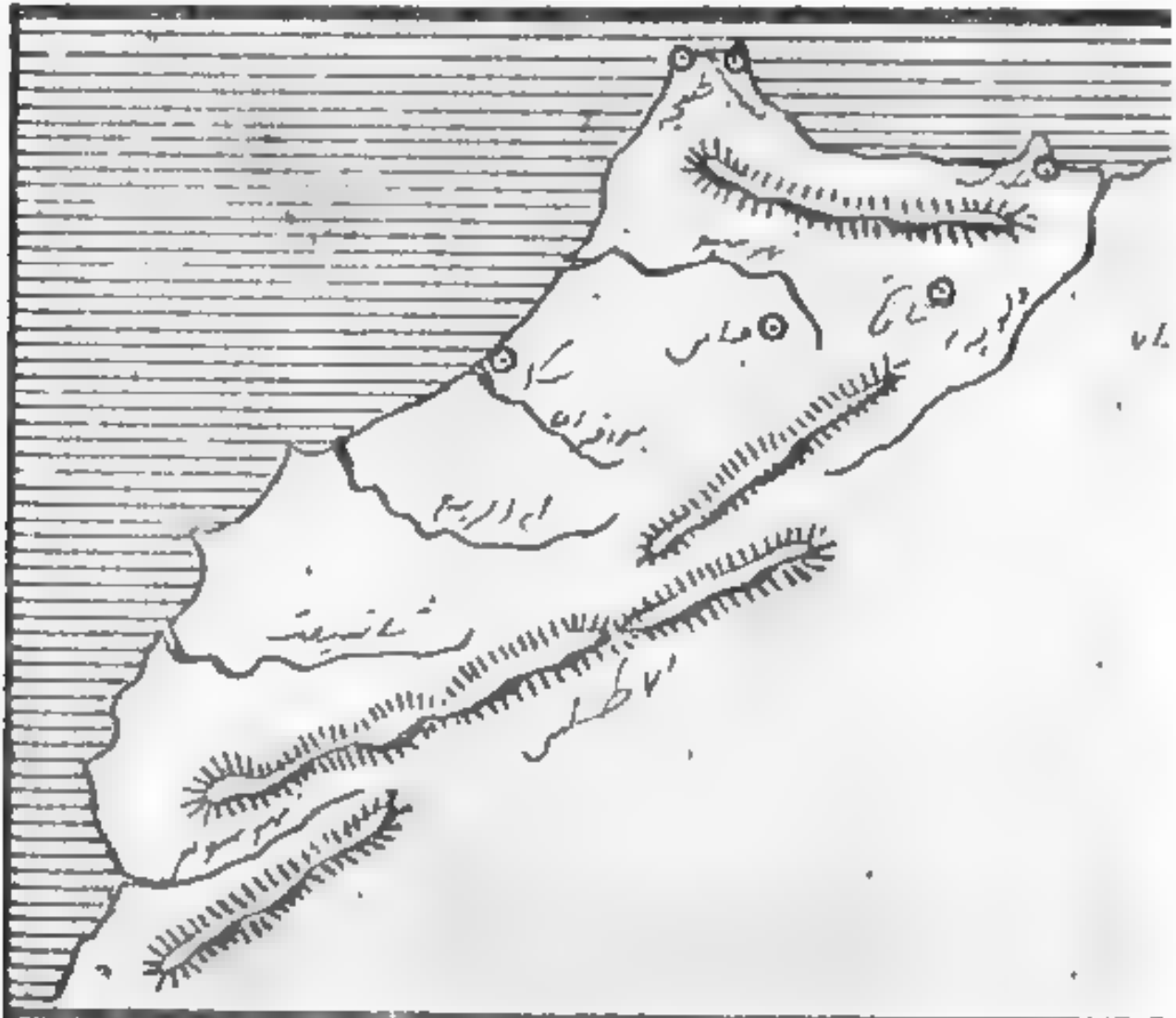
ولما أتمّ المولى إدريس بناء فاس أقام فيها يدبّر شؤون الملك إلى سنة 197هـ حيث خرج لعرو بلاد المصامدة (سوس) فاستولى عليها ثم عاد إلى فاس، وفي سنة 199هـ خرج يريد قبائل نصرّة في المغرب الأوسط فقهر من كان بها من الخوارج، ودخل مدينة تلمسان فأصلح سورها ومسجدها وحصّنها ثم رجع إلى فاس وقد استبدّت له أمر بلاد المغرب وصفا له ملكها وصرّب السكة باسمه ولم يبق له منارِع في ملكه، ولكنه احتضر رحمه الله فمات في عنقوان شبابه ثاني حمادي الآخرة سنة 213هـ.

محمد ابن إدريس

تولى بعد وفاة أبيه وقسم المغرب بإشارة جدته كزّة بين ثمانية من إخوته، فكان ذلك مثار الشرّ إذ خرج عليه بعضهم فوقعت الحرب بين الأحوة وتداعى بقاء الدولة الفتيّة، ومع أنه تغلب على الخارج، واستمرت الدولة بعده سعة عقود من لسنين أو تزيد إلا أنها لم تقم بأعمال عظيمة تستحق الذكر فضلاً عن الفتر التي طع قرنّها في أيامه فلم يكسر بعد.

ثم قام موسى بن أبي العافية فأصلّى الأشراف الأدارسة ناراً حامية، وقوّص دولتهم بعاس وأتى عليها من الأساس، وقد تداول

السلطة هو وأولاده أكثر من مائة سنة ولكن المغرب لم يَجُنْ من ولايتهم إلا الخراب والدمار. وفي أعقاب دولتهم قامت للأشراف الأدارسة إمارة صغيرة بساحية الريف، ثم انقرضت سنة 375هـ وبذلك انقطعت الدولة الإدريسية من المغرب نهائياً، وسبحان الباقي بلا روال.



خريطة تمثل المغرب في عهد الأدارسة

المغرب في عهد الأدارسة

كانت مدة الأدارسة بالمغرب مائتي سنة وثلاث سنين تقريباً وكان عملهم بالمغرب من السوس الأقصى إلى ما وراء تلمسان في غير أيام ضعفهم.

وقد يقار إن المولى إدريس بافتطاعه للمغرب عن دولة الخلافة واستقلاله به، قد خرج عن الجماعة، وفرق كلمة المسلمين، إلا أن الواقع أنه أفاد المغرب كثيراً لا سيما وأن مآل البلاد الإسلامية كان هو التجزئة قطعاً، وفي الأفطار النائية عن بلاد العرب مثل لمغرب كان يلزم أن تقوم بها حكومة عربية محلية لتطعها بطابع العروة الصميم بعد دخولها في الإسلام وتتمكّن من إدارتها بالخصوص إدارة موجهة نحو فكرة الجامعة العربية الإسلامية، وإلا كان مصيرها مثل بلاد العجم والتركستان وغيرها من البلاد التي أسلمت ولم تتعرب. وفي الحقيقة أن ولاية الأشراف الأدارسة للمغرب بهذا الشكل كانت خيراً وبركة على أهله، إذ تم انتشار الدين الإسلامي وبلوع دعوته إلى كل بقعة، وأمحت منه الدعوي الباطلة والعقائد الزائغة من اعتزال وخارجية وتشيع فصلاً عن النحل والمذاهب غير الإسلامية، فكان هذا مبدئاً توحيده الذي لم ينمّصم بعدوان سعى في ذلك ساعود، واستعرب المغرب في أيام الأدارسة وانتشرت فيه العلوم والآداب ولولا ما كان يثور من الفس آناً بعد آن لأتت الههصة العلمية الشائنة حينئذ بأحسن السائح، ويكفيك أن في هذا العهد

أسست الجامعة القروية العظيمة. وعلى الحملة فقد حطا المغرب في أيام الأدارسة خصوات واسعة نحو الحصار والعمراة، وفي غالب الأحوال كانت المعيشة رخيّة والحكومة عادلة والرعية ممتعة بجميع الحقوق من غير أن يضيق عليها في شيء أو تكلف بما لا تطيق مع متانة في الأخلاق وقوة في النفوس وصلابة في الدين.

جامعة القرويين

بنتها السيدة فاطمة أم البير الفهرية القيروانية من مالها الحلال الذي ورثته من أبيها وزوجها سنة (245هـ) أعني قبل ساء الأهرر بمائة سنة وريادة إذ كان بناء الأزهر سنة (359هـ) فتكون هي أقدم جامعة في العالم، ولم تكن لأول بنائها بهذه السعة والفخامة بل زيدت فيها بعد ذلك زيادات مهمة أيام دولة زبارة والمرابطين وغيرهم، وأما المدارس والخزانات وغيرها من المصالح والمرافق المحقة بالقرويين فإن لبي مريس القدرح المعلى فيها ونشير بالخصوص إلى مدرسة المطارين التي بناها أبو سعيد المريني، ومدرسة أبي عناد اللتين نُعِدَّتْ قطعتين خالدين من الفن المغربي، ولا ننسى حراة الكتب وحراة المصاحف اللتين احتفل في بنائهما بما لم يسبق إليه.

وابتداً نجم القرويين يلمع في سماء العلم منذ أواخر القرن الثالث وأول الرابع، فتحرَّج منها علماء كبار في مختلف فنون المعرفة، ومرَّ عليها رمن لم يكن يافسها فيه أي معهد آخر في أداء رسالة الأدب العربي، وقد قصدها الطلاب من مختلف الجهات حتى من بلاد أوروبا، ومهم الباب (سلفستر الثاني) الذي كان أول من

أدخل الأرقام العربية إلى أوروبا.

ونظام الدراسة في القرويين لا يختلف عما هو عليه في الجامعات الإسلامية الأخرى، وهو نظام الحلقات، والطالب الذي ظهرت بجابته يال من أستاذه إجازة تشهد بتحصيله، ومواد الدراسة لا تنضبط، على أن الدروس الدينية واللغوية لم تنقطع من الجامعة أصلاً.

وقد نشطت علوم الفلسفة في الجامعة أيام (الموحدين) كما وقعت نهضة عظيمة في الرياضيات أيام (المرينيين).

واجتاز تاريخ العلوم بالقرويين ثلاث مراحل:

- (1) عند قيام الدولة الموحدية حيث انتصر مذهب الأشعري بما يستلزمه من علم المطلق والحدل على مذهب السلف.
- (2) عندما أعلن يعقوب المنصور الموحدي الحرب على علم الفروع وعمل على نشر السنة.
- (3) عندما أمر السلطان سيدي محمد بن عبد الله العلوي بتنظيم الدراسة وبعث الحركة العلمية.

هذا كله كان في الماضي أما الحاضر فقد دخلت الكلية في طور الإصلاح منذ عام 1332هـ حيث أمر السلطان المرحوم مولاي يوسف بتأسيس مجلس للنظر في شؤون القرويين ووضع برنامجاً للدراسة فيها فقسّم منهاج الدراسة إلى ثلاثة أقسام، وقرر نظام المراقبة والامتحانات وإعطاء لشهادات، ثم صدر أمر آخر من حلاله السلطان المحبوب سيدي محمد سنة 1350هـ بإعادة النظر في أمر إصلاح



يمثل هذا المنظر قسمًا من داخل المسجد

القرويين وتنظيمها على حسب ما يقتضيه النهضة العلمية الحديده،
ويليق بماضي القرويين الراهر حقق الله الآمال.

— أسئلة —

- (1) متى فتح العرب المغرب؟
- (2) لمن كان المغرب تابعاً قبل حكم الأدارسة؟
- (3) من هو الذي أسس الدولة الإدريسية ومتى أسسها؟
- (4) ما هي أعماله في المغرب؟
- (5) كيف مات وفي أي عام؟
- (6) ما هو تاريخ ولادة إدريس بن إدريس؟
- (7) كيف كانت كماله راشد له؟
- (8) ما هي شواهد الإخلاص الأخرى في خدمة راشد للأدارسة؟
- (9) بمادا تعرف نحابة إدريس بن إدريس؟
- (10) لمادا بنى فاس ومتى؟
- (11) ما هو موقع هذه المدينة وكيف وقع تخطيطها؟
- (12) ما هو مقامها بين مدن المغرب؟
- (13) ما هي حروب إدريس بن إدريس وما كانت الغاية منها؟
- (14) ماذا كان له من لعمر لما توفي؟
- (15) لماذا كانت فكرة تقسيم المغرب مثاراً للشر؟
- (16) من الذي خرج على الأدارسة وحطم دولتهم بفاس؟

- (17) أين قامت دولتهم الشبية؟
- (18) متى انقرضت دولتهم وإلى أين بلغ نفوذهم؟
- (19) ما الذي جناه المغرب من حكم الأدارسة؟
- (20) كيف كانت الحياة العمومية على عهدهم؟
- (21) كم كانت مدة حكم الأدارسة؟
- (22) من بنى جامع القرويين وفي أي سنة؟
- (23) ما هي الدولة التي اعتنت به أكثر؟
- (24) ما هو تأثير القرويين؟

دولة زناتة من مغراوة وبني يفرن

لم يَصِفُ الجوّ لدولة من الدول مهما كانت صغتها دون أن يكون لها معارض قوي أو ضعيف. والدولة الإدريسية من جملة الدول عارضها العبيديون القائمون بإفريقيا وظهرهم موسى بن أبي العافية الذي أخرج الأدارسة من فاس وتتنعهم في مواطنهم حتى ألجأهم إلى الريف حيث أسسوا دولتهم الثانية كما سبق القول.

ثم استولت عليه الأطماع فحلح طاعة العبيديين وأعلن دعوة بني أمية أصحاب الأندلس فقاتله العبيديون وهزموه. وقام بدعوة العبيديين من بعده ميسور الحصى فلم تزل الحرب سجالاً بين أصحاب الدعوتين وبني إدريس على ضعفهم متمسكون بأمرهم وإن أظهروا الحصوص للمغلب في بعض الأحيان.

هناك كان المغرب يعيش في فوضى ويتخبط في طلام إلى أن برقت بارقة أمل باستيلاء ريري بن عطية المغراوي على المغرب في سنة 377. وكانت مغراوة وبني يفرن قبيلتين من زناتة تتويان بني أمية منذ أن أسلم جدهم على يد عثمان بن عفان رضي الله عنه، فتصح حينئذ اتحاه المغرب بإحلاص نحو الدعوة الأموية. وقد قاتل ريري

دونها العبيديين فضطروهم إلى الترحيل وانكمشو فيما وراء تلمسان،
وبذلك امتدت سلطته إلى داخل المغرب الأوسط.

وكان زيري ضابطاً حارماً فني مدينة وحدة وشيد أسوارها
وقصبتها وحصنها وسكنها بأهله وحشمه ونقل إليها أمواله ودخائره
وجعلها قاعدته ودار ملكه لكونها جاءت وسط بلاده يحكم منها
المعربين ويدبر منها أمر القطريين، وكان تأسيسه لها سنة 384.



يمثل هذا المنظر المأخوذ
من الجو مدينة وحدة عاصمة سيري

ومع أنه يتولى بني أمية فإنه كان يحذر حاحبهم المنصور بن أبي عامر، ففي سنة 382 استدعاه المنصور إلى ريارة الأندلس فقدم عليه وحمل بين يديه هدية عظيمة من جملتها طير فصيح يتكلم بالعربية والبربرية ودابة من دواب لمسك ومهابة وحنية تشبه لهرس وحيوانات غريبة وأسداً عظيماء في قفص من حديد وتمر كثير في غابة العظم التمرة الواحدة منه تشبه الخيار، وحمل معه من قومه وعبيده ثلاثمائة فارس وثلاثمائة راجل، فصنع له المنصور بروراً عظيماً، وأنزله بقصر فحم ووسع له في الحرايات والأكرام ولقبه باسم الوزير وأعطاه مالاً حسيماً وخلعاً نفيسة وصرفه إلى عمله وحدد له الولاية على المغرب، فجار لبحر ولما وصل إلى طجة واستقر بها وضع يده على رأسه وقال: الآن علمت أنك لي.

واستقل ما وصله به المنصور وحتقر لقب الوزارة التي لقبه بها ولقد خاطبه بها بعضهم فنهاه عن ذلك وقال له: ويحك! وزير من يالكع! لا والله إلا أمير ابن أمير، وأعجبا لابن أبي عامر ومخرقته، لأن تسمع بالمعيدي خير من أن تراه، ولو كان بالأندلس رجل ما تركه على حاله.

واتصل بالمنصور انتقاص زيري له ففسد ما بينهما وأراد أن يصلحاً بالحرب ما لم يصلح بالسلم فتقاتلا وكانت النهاية بعد موت زيري سنة 391 إن راحع ولده المعز طاعة لمنصور واستمرت الحال صالحة بين الدوتين إلا أن النزاع بين أمراء معراوة كان على أشده وكذا بينهم وبين بني يفرن إخوتهم، فإن يثؤ بن يعلى اليفرني كان يهاض زيري بن عطية وغلبه على فاس مراراً.

وكان بنو يهرن قد حيروا إلى نواحي سلا فاستولوا عليها وعلى مدينة شالة وكانت هي عاصمتهم ثم ملكوا نادلا وما والاها من البلاد.

وفي سنة 424 كان أميرهم تميم بن زيري بن يعلى وقد قوي أمره واستولى على فاس مدة.

وهكذا تداولت القبيلتان الحكم في المغرب إلا أن الظهور والأعلية كانا لمغراوة دائماً، فذلك بحق أن تعتر الدولة مغراوية.

وعلى كل فإن المغرب قد قامت هذه الدولة بل من قبل إلى أن اضمحلت أمام القوة المرابطية في سنة 462 لم يطمئن إلى حياة الهدوء والسكينة، ولم يرل ميداناً للتنازع على السلطة والقبال في سبيل السيطرة، فلا حرم أن بهي حلفاء في النهضة العلمية والأدبية ولم يتمكن من الاحتفاظ باستقلاله الذي كان على عهد الأدارسة.

ومع أن زيري كان حقيقاً بأن يضطلع بالمهمة لأنه كما رأيت طموح ومدبر إلا أن خصمه كان أدهى وأمر.

نعم قد كثرت العمارة في عهد هذه الدولة فقطع الطر عن تأسيس مدينة وحدة اتسعت مدينة فاس وكثر البناء فيها وريد في جامع القرويين زيادات مهمة.

وفيما عدا أيام الفتن كانت الحيرات باسطة والنعم متدفقة والحكام إلا القليل منهم منقشفون في أنفسهم منعفون عن دماء الناس وأموالهم إذ كانت لبداءة متمكة منهم والسذاجة الديبة غالبية

عليهم، فلولا الأناية والطمع لعاش المغرب في عهده هذا أرعد عيش.

— أسئلة —

- (1) فكّر وقل لماذا لا تخلو الدولة من معارضه؟
- (2) من الذي ظاهر العبيدين أولاً وثانياً؟
- (3) لماذا انقلب موسى بن أبي العافية أموياً؟
- (4) هل سلم الإدارة أثناء هذه الحروب في دعوتهم؟
- (5) ما الذي أنقد المغرب من هذا التزاحم وأفرد وجهته؟
- (6) لماذا كانت هذه الدولة تتوالى بني أمية؟
- (7) ما هي أعمال زيري في السياسة والعمران؟
- (8) ماذا كان موقفه من المنصور بن أبي عامر وعلام يدل؟
- (9) لماذا علنه المنصور؟
- (10) من الذي كان يعارض زيري في المغرب؟
- (11) أين كان مركز الحكومة اليفرنية وما هي منطقة نفوذها؟
- (12) ما هي مدة حكم هذه الدولة؟
- (13) ما هي حالة المغرب العمومية في هذا العهد؟

الدولة المرابطية

هي دولة لمتونة، قبيلة من صهاجة وسب تسميتها بالمرابطية إن أوائلهم كانوا قد دخلوا في رباط لعبد الله بن ياسين لما انعرل عنهم فسماهم بذلك. ويسمون أيضاً بالملثمين لأنهم كانوا يتلثمون ولا يكشفون وجوههم أصلاً.

وكانت مواطن لمتونة وسائر قبائر صهاجة بالصحراء. وكانوا على جهل عظيم بالدين، ففي سنة 427 حج أميرهم يحيى بن إبراهيم الكدالي فلقى المقيه أبا عمران الماسي بالقيروان وعرفه حالة بلاده وسأله أن يبعث معه بعض تلامذته يقرئهم القرآن ويفقههم في الدين. فدب المقيه تلامذته لذلك فلم يتدب منهم أحد، بشافاً من دخول الصحراء، فكتب له رسالة إلى تلميذه وكك بن رالوا، وهذا بعث مع يحيى تلميذه عبد الله بن ياسين، وكان من أهل الدين والورع والفقه والأدب والسياسة.

فلما دخل مع يحيى بلاده هرح به أهلها وعظّموه، وقد وحدهم يجمعون بين عشر نسوة وأكثرهم لا يعرفون من أحكام الدين وشعائره شيئاً، فجعل يأمرهم ويهاهم فثقل عليهم ذلك، وبما أيس منهم اعتزلهم وأقام هو في رباط بعبد الله تعالى، فما كان غير قليل

حتى شاع أمره ولحق به جمهور عمير فصار يعلمهم ويقرئهم الكتاب العرير حتى إذا استقام له أمرهم نذبهم إلى جهاد من خالفهم من قومهم فأتاح الله لهم النصر عليهم ودخلوا في السُّنة والجماعة طوعاً أو كرهاً.

ودخل المرابطون إلى المغرب في سنة 447 ومعههم عبد الله بن ياسين، فقاتلوا محوس برعواطة تامسنا وردوهم إلى الإسلام ثم تتابع دخول بلاد المغرب في طاعتهم وكان أميرهم أبو بكر بن عمر اللمتوني قد أتاه خبر بانتفاص أمر الصحراء فعرم على المسير إليها لاستصلاح أحوالها ولجهاد الكفار من السودان، فإن للمتونة يداً بيضاء في انتشار الإسلام بتلك الأصقاع، ولهذا استخلف ابن عمه يوسف بن تاشفين على المغرب وفوّض إليه أمره وذهب هو إلى الصحراء.

يوسف بن تاشفين

هو ملك المغرب والأندلس ورجل إفريقية الشمالية العظيم استخلف على المغرب في سنة 453 وكانت وفاته سنة 500 وله من العمر تسعون سنة.

كان هذا السلطان أول الملثمين وآخرهم، ليس فيهم مثله وقلّ فيمن أتى بعده من سلاطين المغرب من كان مثله علو همة وحسن سياسة ومناة دين. وهو أول من تلقب بأمر المسلمين في الإسلام وأول من ضم الأندلس إلى إفريقية.

فلما بولى أمر المغرب اختار قواده من ذوي الكفاءة وجعلهم مقدمة بين يديه وسار هو في أثرهم يتقربى البلاد ويقاقل من يقاومه من مغراوة وبني يهر وسائر القبائل حتى دوح بلاد المغرب وفتح فاسا وقصى بهائياً على دولة زنادة. ثم طمح إلى الاستيلاء على المغرب الأوسط وعاصمته تلمسان ففتحها من يد مغراوة ثم افتتح مدينة تنس ووهران وحل وانشريس وجميع أعمال شلف إلى الحرائر ورجع وقد صفا له أمر المغربين سنة 475. وأما بالصحراء فقد كان مستحله أبو بكر بن عمر مصى يحاهد فيها إلى أن بلغ حدود السودان ونهر السحمر ودخلت هذه البلاد كلها في طاعة يوسف لما توفي أبو بكر هذا سنة 480.

وفي هذه الأثناء كانت تتوارد أباء سيئة عن الأندلس واستئساد العدو بها واستيلائه على ثغور المسلمين وتضريبه بين أمرائها الدين يعرفون بملوك الطوائف مستهزاً فرصة اشتغال بعضهم ببعض ليقضي على البقية الباقية لدولة الإسلام والعروبة تلك الجزيرة.

ولما طغى السيل ويئس الأندلسيون من النجاة عزموا على الاستصراخ يوسف فاجتمع أمراؤهم وكتبوا إليه مستنحدين بحميته وشجاعة قومه المرابطين، فما كان منه إلا أن لبى دعوتهم واستنفر الحيش والمقاتلة إلى الجهاد وحار إلى الأندلس جواره الأول في سنة 479 فلقبه أهلها وأمراؤها وعلى رأسهم المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية وابن الأفطس صاحب بطليوس وعيرهما وبارل ألفس السادس ملك قشتالة وحيشه العظيم بسهل الزلاقة من ناحية بطليوس

فاتصر عليه وهرمه شر هزيمة حيث لاذ بالفرار في ثلة من الحند مستتراً تحت جناح الطلام.

وكنّت هذه الواقعة الحاسمة في يوم الجمعة 5. رجب 479 وتعرف بالزلافة. وسها تنفس الأندلسيون الصعداء وآمنوا على أنفسهم وديهم وعادت لهم حياة العر والشرف بعدما كانوا فارقوها منذ زمان. ومن المحقق أن لولا هذه الواقعة التي أوقعت مطامع النصرانية عند حدّها لذهت ريح المسلمين من الأندلس في نهاية القرن الخامس ولما شاهد لناس تلك المدينة العظيمة التي ازدهرت هالك مدة أربعة قرون أخرى من عهد الموحدين إلى نهاية سي نصر ملوك عرناطة.

ورجع يوسف إلى المغرب بعدما ترك قطعه من جيشه تحت تصرف ملوك الطوائف لحماية الثغور ودفاع العدو لكن هؤلاء سرعان ما راجعوا حياة الدهو والتناحر وضعوا الحند وعرضوا الأندلس للمقد من جديد، فحاء الصريح إلى يوسف من فقهاء الأندلس وأعيانها وعامتها فأسرع إليهم وكان العدو قد أخذ في الانقصاص على بلاد الإسلام فأوقفه عند حدّه وقضى على ملوك الطوائف وصم بلاد الأندلس إلى المملكة المغربية. وبذلك صارت دولة المرابطين تجمع ما بين لمغربين والأندلس وتمتد في الحبوب إلى بلاد السودان والسنگال.

وكرر يوسف بصلاً نافذاً وملكاً مهيباً، ضابطاً لملكه، منفقداً لرعيته، سالكاً سيرة العدل والإنصاف جواداً كريماً ورعاً تقياً مفرّباً

للعلماء والمقهاء صادراً عن قلوبهم في الحليل والحقير، ويعد المؤرخون من أعظم أسباب نجاحه رواحه بالسيدة زينب بنت إسحاق النفزاوية وكانت تحت أبي بكر بن عمر فطلقها لما أراد الدخول إلى الصحراء وهي كانت مرشدة في كثير من أعماله. ولا ريب فإن للنساء تأثيراً كبيراً على حياة العظماء، وقلّ أن تجد شخصية كبيرة لا تكون المرأة من عناصر تكوينها ومن أعظم مآثره بناء مدينة مراكش سنة 454.

مملكة المرابطين



خريطة تمثل جميع المناطق
التي امتدت إليها السلطة المرابطية

مراكش

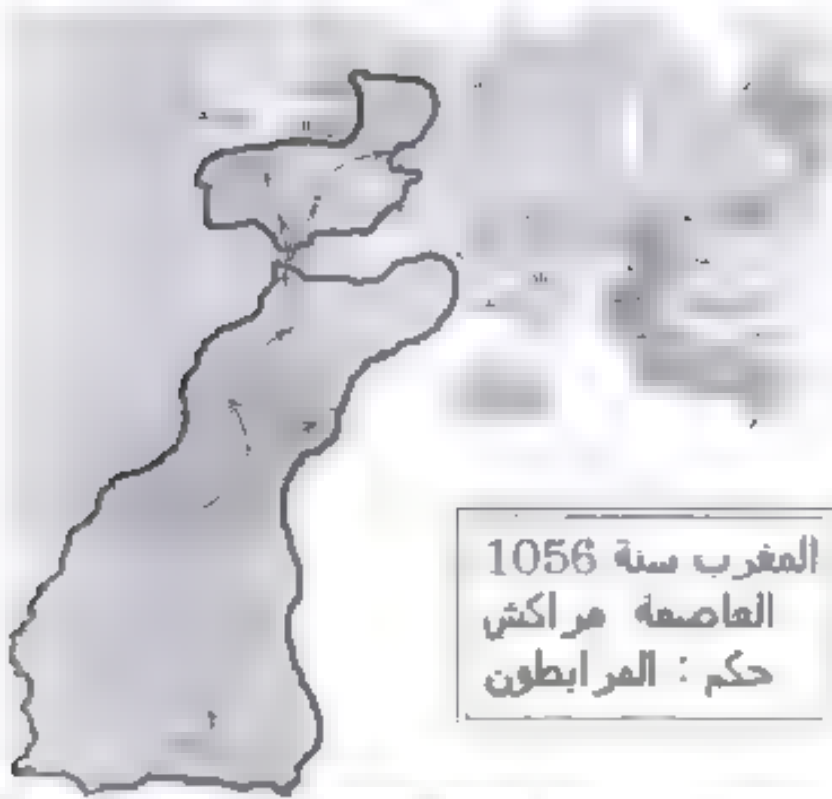
عاصمة الحبوب ومدينة الهواء والنحيل تسمى الحمراء والبهجة ولها من اسمها نصيب، فإن مكانها في سموح جبال الأطلس وسعة أرجائها ونزهة ناحيتها جعلتها تبهج الناظر وتشرح الحاطر، وإن من مناظرها الفئانة رؤية غروب الشمس بها ورؤية الثلوح على قمم الجبال بقربها وهي التي تعدل جوّها وتلطّف حرّها. وأهلها من أصيب الناس أخلاقاً وأكرمهم نفوساً ولهجنهم من أفصح اللهجات المغربية. وفيها المعلم والأدب سوق رائجة. وقد مرت عليها عصور كانت هي العاصمة لكل من المعارب الثلاثة والأندلس، وتقدمت فيها معارف الحصارّة تقدماً كبيراً، ولا يزال طابع ذلك العهد الراهر عليها إلى الآن، فلذلك لا تكمل معرفة المغرب إلا برؤيتها ومخالطة أهلها.

ولما بناها يوسف جعلها مقراً لحيشه وأهل دولته، وكان يحترم ويعمل في الطين والبناء مع الخدمة تواضعاً منه لله تعالى ولم يجعل عليها سوراً، ثم سورها ابنه عيسى سنة 526 وبنى مسجده المعروف به (جمع ابن يوسف) وهو بمثابة القرويين في مراكش. وأكثر الموحّدون فيها البناء وشيدوا الآثار كجامع الفاء العظيم ذي المنار الصخّم المعروف بالكتيبة وصهريج المسارة وغيرهما وللمرييين فيها أيضاً آثار كمدرسة جامع ابن يوسف وغيرها وللسعديين أيضاً آثار منها قبورهم التي تنبئ عن مبعث تفنهم في الحضارة والعمران. وأما حار أكدال التي أنشأها السلطان مولاي عبد الرحمن بن هشام العلوي فيها من أحمل المناظر وأحسن المآثر. وفوق هذا فإن بها

من مشهده رجال العلم والصّلاح كصريح القاضي عياض وأبي العباس السبتي وأبي القاسم السهيلي ومحمد بن سليمان الجزولي وغيرهم ما يريدونها فخراً وشرفاً، فذلك يقال فيها بغداد المغرب.

ولما أتم يوسف هذه الأعمال توجّها بتاج الصدق والإخلاص فأعلن انضواءه تحت لواء الجامعة الإسلامية وكتب للحليفة العباسي أحمد المستظهر بالله يبيعه ويطلب منه تقليداً على ما بيده من الأعمال فأجابه الخليفة إلى ذلك وكان يلقب بأمير المسلمين وكره أن يلقب بأمير المؤمنين تأديباً مع الحليفة. وهذا هو المثل الأعلى لما يجب أن يكون عليه ولاة الأقاليم الإسلامية وملوكها لو كانوا يشعرون. ولو فعلوا ذلك لما وجد العدو قط إلى غمر قناتهم سيلاً وما شاء الله كان. وقد ضرب يوسف السكة باسمه واسم الخليفة العباسي وبقي هو وإنه يخطبون له على منابر المغرب والأندلس التي كانت تنيف على ألفي منر.

مراكش عاصمة المملكة المرابطية



يمثل هذا المنظر المأخوذ من الجو صورة (مراكش الحمراء) وترى منارة الكتبية الشهيرة وهي تناطح السحاب

علي بن يوسف

وُلِّيَ بعد وفاة أبيه وه من العمر 23 سنة وقام على قدم وساق في صط مملكته الشاسعة والسهرة على مصالح رعيتيه فأحببه الناس والتفّ حوله الجمهور من العلماء والأدباء.

وكان حليماً وقوراً صالحاً عادلاً منقاداً إلى الحق مشاوراً لدوي الرأي والفضل.

وحاز إلى الأندلس سنة 503 وفتح مدينة طلايوت ومجريط ووادي الحجارة وحصوباً كثيرة حول طليطلة ثم عاد إلى المغرب وفتح قائده سير ابن أبي بكر مدينة شستري وبطليوس ويابورة والإشبونة عاصمة البرتغال ثم عبر هو مرة أخرى إلى الأندلس سنة 513 وقام بأعمال حربية مهمة لجمع العدو وفتح مدينة شنتمرية ولم يرجع حتى مهد سياسة الأندلس وأسد ولايتها العامة لأخيه تميم ثم بعد وفاة هذا سنة 520 أسندها لولده تاشفين الذي سار بسيرة أبيه جده في الجهاد وحسن السياسة وبقي لأمر مستقراً في بصابه والأيام مؤاتية لهذا الملك حتى توفي سنة 537 ولم يعكر عليه صفو راحته إلا ظهور أمر الموحدين الذي استهان به أولاً لورعه وتقواه فاستحال أحياناً إلى خطر عظيم قضى على دولة المرابطين واجتثها من أصولها أقوى ما كانت وأعظمه.

وهكذا لم تنه سنة 541 حتى انتهت حياة هذه الدولة ولله الأمر من قبل ومن بعد.

المغرب على عهد المرابطين

قامت الدولة المرابطية على أساس دعوة دينية خالصة لم تشب بتدليس ولا بتلبيس فكان حكمها مثلاً للعدالة الإسلامية والرحمة الإنسانية، وكان التسامح رائدها وبصرة الحق ديدنها فشطت الهمم وحيّت النفوس وقويت معويات الأمة وتحسنت الحالة الاجتماعية وعمل الاحتكاك بالأندلسيين عمله، فتثقت العقول وتهذبت المشاعر وازدهرت الحضارة واستبحر العمران وراجت سوق الأدب والعلوم، وتكوّنت في المغرب أوساط راقية مشبعة بالأفكار لباضجة ومعدّوة بالفصائل الدينية فلا هي إلى الإحلال الحلقى لدي كان علة الأقوام في الأندلس على عهد ملوك الطوائف، ولا هي إلى التزمت الصوفي الذي يتحه الفهم المقلوب للدين.

وما يغال من أن سيطرة الفقهاء على الدولة كانت قوية جداً وأن التعصب الديني كان هو شعار هذه الدولة إنما هو دعاية باطلة روجها (دوري) ومن لف لفه في الحمل على دولة المرابطين والمغاربة عموماً والتعصب لملوك الطوائف والاندلسيين بالحق والباطل. وإلا فمن آوى العدد العديد من فلاسفة الأندلس وعلمائها وأدائها غير المرابطين حتى قبل أن مراكش حاصرتهم كانت تشبه بعداد أيام عزها في انشغال أهل العلم عليها من كل جهة ومكان.

وكذلك أكرم ملوك هذه الدولة علماء الحديث والأصول والكلام فاحنار يوسف بن تاشفين عبد الله ابن العربي المعافري

وولده القاضي أبا بكر الشهير لسماحه العراق واحتار ولده علي بن يوسف لقضاء قرطبة بعد قضاء ستة القاضي عياضاً الذي نكبه الموحدون فيما بعد، فهل مع هذا يصح أن يقال إن نزعة الفقه في هذا العصر غلت على ما سواه؟

وقد تسامع الساس في الشرق بهذه الفصائل وانتشر للبلاد المغربية بينهم ذكر عاطر، فأكثر علماؤهم من الشاء على هذه الدولة والتبويه بها حتى لقد هم أكبر رحالات الفكر الحر بالمشرق في ذلك العهد وهو أبو حامد الغزالي بالارتحال إلى المغرب ولقاء عاهله الأكبر يوسف بن تاشفين، فأبى يكون ذلك من هذه لدعاية المغرصة؟

وبعد، فقد قال المؤرخ ابن جنون: اكانت لمتونة أهل ديانة وصدق ونية خالصة وصحة مذهب ملكوا بالاندلس من بلاد الإفرنج إلى البحر الغربي المحيط ومن بلاد العدو من مدينة بجاية إلى حبال الذهب من بلاد السودان وخطب لهم على أزيد من ألفي منر بالثنية وكانت أيامهم أيام دعة ورفاهية ورخاء متصل وعافية وأمن تناهى القمح في أيامهم إلى أن بيع أربعة أوسق بنصف مثقال وبيعت الثمار ثمانية أوسق بنصف مثقال والقطاني لا تباع ولا تشتري، وكان ذلك مصحوباً بطول أيامهم ولم يكن في عمل من أعمالهم خراج ولا معونة ولا تقسيط ولا وظيف من الوظائف المخربة، حاشا الزكاة والعشر، وكثرت الخيرات في دولهم وعمرت البلاد ووقعت الغبطة، ولم يكن في أيامهم بفاق ولا قطاع طريق وأحبهم الناس إلى أن

حرح عليهم محمد بن بومرت مهدي الموحدين سنة خمس عشرة وخمسمائة».

— أسئلة —

- (1) أين وكيف وجدت دولة المرابطين؟
- (2) من الذي قام بأمرهم وجمع كلمتهم؟
- (3) متى دخل المرابطون المغرب وما هي أعمالهم فيه؟
- (4) لماذا استخلف أبو بكر بن عمر يوسف بن تاشفين على المغرب؟
- (5) ما هو عمل المرابطين في الصحراء والسودان؟
- (6) كيف كانت سيرة يوسف بن تاشفين؟
- (7) ما هو أعظم عمل قام به لمائدة العروة والإسلام؟
- (8) إلى أين بلغت مملكته في الشمال والحبوب؟
- (9) متى بنى مراكش وكيف عمل في بنائها؟
- (10) ما هو موقعها وما هي مآثرها؟
- (11) ما هو معزى مبايعة يوسف للخليفة العباسي؟
- (12) كم عاش يوسف ومتى تولى ومتى توفي؟
- (13) كيف كنت سيرة علي بن يوسف؟
- (14) ما هي فتوحه في بلاد الأندلس؟
- (15) متى توفي وكم كان له من العمر؟

16) متى انفرصت دولة المرابطين وكم كانت مدة حكمهم بالمغرب؟

17) كيف كن الحكم في أيامهم؟

18) كيف كانت معنويات الأمة في هذا العهد؟

19) كيف كانت الحياة الفكرية وهل صحيح أن المرابطين قصوا بتعصبهم على العلم والعلماء؟

20) ما هي حالة المعيشة والأمن في أيامهم؟

21) قارن بين هذا العهد والعهد السابق وقل ما هي أهم الفوارق بين كل منهما؟

دولة الموحدين

هي دولة المصامدة أهل سوس وإنما يقال لهم الموحدون لأن المهدي بن تومرت القائم بأمر هذه الدولة لما ثار على المرابطين كان يلحق أصحابه العقائد التوحيدية على طريقة الأشاعرة من تأويل الصفات وغيرها ويسميهـم الموحدين تـكـيـتاً مـهـ على المرابطين الذين كانوا على طريقة السلف من عدم التأويل في الصفات.

وكان المهدي هذا خرج من قبيلته هرغة في طلب العلم سنة 500 وهو ابن 15 سنة فدحل الأندلس ورحل إلى المشرق وحبس ولقي أبا حامد العزالي وأب بكر الطرطوشي ورجع إلى المغرب بحراً متصحراً من العلم فحعل يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر ويشتد على الناس في ذلك حتى ألفت إليه الأنظار في كل بلدة مرّ بها. وفي ملالة قرية سحاية لقي عبد المؤمن ابن علي الكومي وكان قصده الذهاب إلى المشرق في طلب العلم فقال له: «لقيت علماً وشرقاً» وصحه معه إلى مراكش حيث واحه أمير المسلمين علي بن يوسف ابن تاشفين وأمره وبهاه وأغلط عليه فهم بحبسه ثم تركه تورعاً مـه فخرج خائفاً يـرـقـب إلى أن امنع بجبال سوس. وهالك في قرية يقال لها تيممل أعلن بدعوته وبايعه الناس سنة 555 وبقي يربي أصحابه

ويعمدهم أمور الدين بالعربية والبربرية ويلقنهم القول بعصمة الإمام علي رأي الشيعة مشيراً إلى أنه هو، ولم تحمط عنه فتنة في البدعة سواها كما يقول اس خلدون، فلما اشتهر أمره وكثر أتباعه أرسل إليه المرابطون حملة تأديبية فهرمهم، ومن ثم جعل يناوشهم القتال ويهدد مراكش ذاتها والقبائل تمد له يد الطاعة إلى أن مات سنة 524 وخلفه رفيقه عبد المؤمن بن علي.

خلافة عبد المؤمن

لما بويح له خرج من حيه مغيراً على بلاد تادلة ودرعة وعمارة فاستولى عليها وتسابق الناس إلى دعوته أفواجاً وانتقضت القبائل على المرابطين. ثم صرف عزمه لفتح بلاد المغرب فخرج من يسمل سنة 534 في عارة طويلة مكث فيها سبع سنين فلم يرجع حتى فتح المغربين معاً الأقصى والأوسط وهلك علي بن يوسف وابنه تاشفين الذي ولي بعده، وبإلقاء أهل فاس وتلمسان ومراكش إليه بالمقاليد أواخر سنة 541 خلصت له مملكة المرابطين في المغرب وقصى على سلطانهم القضاء المرمم. ثم بدأ يهتم بأمر الأندلس فما عثم أن قدم عليه وفدها وهو بمراكش للبيعة سنة 542 وأرسل إليها جيشاً بقيادة أبي حفص عمر الهنتاني من كبار أشياخ الموحدين، إذ كان العدو اغتنم فرصة انقلاب الدولة فأغار فيها على بلاد كثيرة فغزا هذا الجيش بلاد العدو وفتح فيها فتوحاً مهمة ثم رجع.

وطمح عبد المؤمن إلى الأسبلاء على بقية الشمال الإفريقي لا سيما ودولة سي ريري التي كانت حاکمة هناك قد ضعف أمرها حتى

عدا إفرنج صقلية على بعض ثعورهم واحتلوها فتوحه إليهما بنمسه سنة 546 ومهد أمرها باستيلائه على سجاية وقلعة حماد وقسنطينة ورجع إلى المغرب ثم عاد إليها سنة 554 بحيش حرار فدخل تونس وضرب الحصار على المهدية وكانت بيد الإفرنج وهي أمتع ما يكون يحيط بها البحر من ثلاث جهات فتركها محاصرة برًا وبحرًا ومضى بفتح طرابلس وصفاقس وسوسة وحمال نفوسة وسائر بلاد إفريقيا إلى برقة ثم سقطت المهدية في يده أواخر السنة بعد هزيمة الأسطول الذي أتى بسجدها وانقطعت بذلك عادية الإفرنج عن بلاد إفريقيا مدى حن.

ورجع عبد المؤمن إلى المغرب وقد صبط أمر هذه البلاد وأصلح شأنها ولم يسرح إلا قليلاً ثم عبر البحر إلى الأندلس سنة 556 ونزل بحبل طارق وكان قد أمر ببناؤه وحصينه وكان يسميه جبل الفتح فأقام به شهرين وأشرف منه على أحوال الأندلس ووجد عليه قوادها وأشياعها فأمر بعرو غرب الأندلس فغري وكان الظفر للمسلمين ثم خرج ألفونس لقتالهم فهزم وتدد جيشه ودخل الرعب العدو من جراء ذلك فكف عن المسلمين أداه.

ولما استدف الأمر لعبد المؤمن وتمهد له ملك إفريقيا والأندلس تافت نفسه إلى الجهد فعزم على غزو بلاد الإفرنج برًا وبحرًا وحمل يستعد لذلك فأمر بإنشاء الأساطيل في سواحل مملكته فأنشئ له منها 400 قطعة ونظر في استجلاب الحيل والاستكثار من أنواع السلاح والعدد وأمر بضرب لسهام في جميع عمله فكان يُصرب له منها في كل يوم نحو عشرة قاطير كل ذلك في سنة 557 ولما دخلت سنة 558 خرج من

عاصمته مراكش فاصداً الأندلس برسم الجهاد في حيش عرمرم ونعيثة هائلة ولكن المرض فاجأه وهو برباط سلا ثم توفي ليلة الجمعة 8 جمادى الثانية من السنة المذكورة فحمل إلى تينمل ودفن بها إلى جنب المهدي.

وقد انتهت حياة هذا العاهل العظيم وما انتهى الحديث عن أعماله الكبيرة، فقد رأينا كيف وُحِّد بين أقطار الشمال الإفريقي وكوّن منها دولة قوية ردعت الرعب في قلوب الأعداء فحقق بذلك أعظم أمل لا يرال يخالغ نفوس الساسة والمهتمين بمستقبل هذه البلاد خصوصاً في العصر الحاضر الذي أصبح شعاره قول الشاعر (وإما العرة للكاثر).

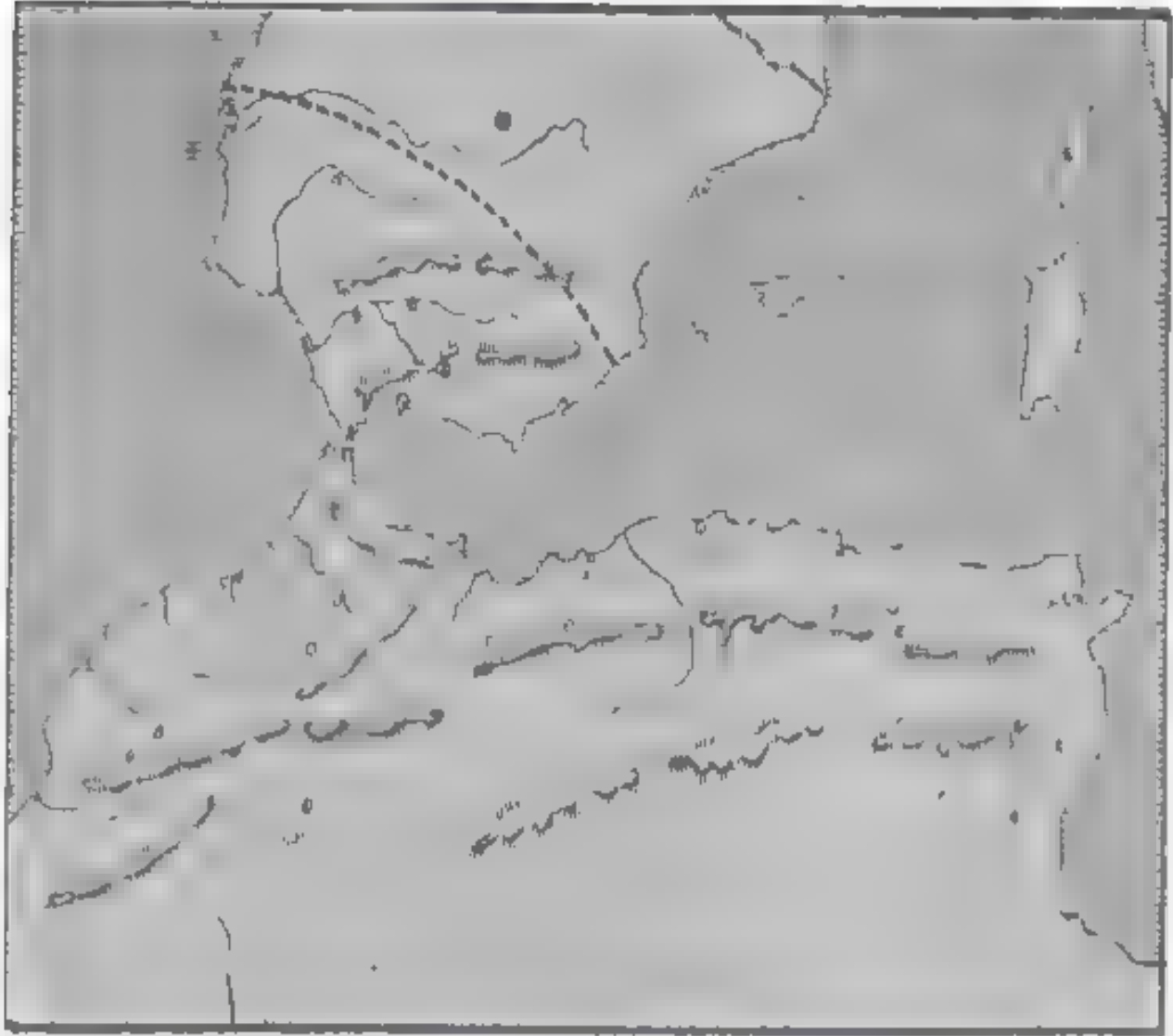
ثم أنه اتسع العمل العسكري بأعمال إدارية واجتماعية مكنت له في هذه البلاد وجعلت منها وطناً واحداً لا تحرقة فيه ولا خلاف، فكسر أرض إفريقيا والمغرب من برفه شرفاً إلى بلاد نول عرباً بالمراسح والأميل طولاً وعرضاً ثم أسقط من التكسير الثلث في الحبال والأنهار والطرق وأشبابها وما بقي وظف عليه الحراج وألزم كل قبيلة بأداء واحبها وكان هو أول من جعل ذلك بالمغرب سنة 555 وأمر بمحاربة المسكرات وإزالة المسكرات ونظر في أمور التربية والتعليم فصرف الناس عن كتب الفروع التي كانت قد كثرت كثرة مطلقة إلى كتب الحديث وأمر باستباط الأحكام منها مباشرة وبذلك قضى على الفكرة الحاملة القائلة بانقطاع الاجتهاد في الأحكام.

وقد اعتنى بأهل العلم وطلبته اعتناء زائداً ورتب لهم العطاءات الكافية وجعلهم بطانته وأهل خاصه وبني المساجد العظيمة وحصن الثغور وهدم أسوار المدن التي يمتنع بها الثوار قتلاً. «إنما الأسوار سيوفنا وعدلنا» ومن

جمعة مآثره بمراكش جامع الكتبيين العظيم ساء سنة 553 وبستان المسره وكان طوله ثلاثة أميال وعرضه قريباً من ذلك وكان فيه كل ما كنه تشتهي وحلب له الماء من أغمات ريابة على ما استنطه له من العيون الكبيرة وأنشأ فيه صهريحاً واسعاً كالبحيرة كان يمر في الحنود وشيوخ الموحدين على العوم والتجديف وهو صهريج المنارة المعروف.

وفي سنة 552 وصله المصحف العثماني الذي كان جده الأمويون من المشرق، هدية من أهل قرطبة، فاحتفل عبد المؤمن لقبوله بمراكش احتفالاً عظيماً وصنع له حرانة وأعشية محلاة بالذهب والفضة ومرصعة بأنواع الباقوت والحجارة الكريمة أثابه الله على ذلك إلى غير هذا من أعماله وآثاره الجليلة.

الإمبراطورية الموحدية



هذه الخريطة تمثل جميع المناطق
التي انبسط عليها حكم الموحدين

بستان المرة بعاصمة مراكش



هذا المنظر يمثل صهريج المنارة المعروف



صهريج المنارة تحيط به الأشجار والأزهار

يوسف بن عبد المؤمن

ثاني خلفاء الموحدين ومأمود هذه الدولة الذي ناصر علوم الحكمة والفلسفة ووالى أهلها وكان هو نفسه متحققاً بكثير من أحرائها مشاركاً في حملة من فنونها واستوزر أبا بكر ابن الطميل الطيب والميلسوف المشهور، وقرب أبا الوليد بن رشد وحمله على شرح فلسفة أرسطو والتوفيق بين الشريعة والحكمة إذ كان هو مهتماً بذلك غاية الاهتمام، هذا فضلاً عن تضلعه من لعلوم الإسلامية حتى أنه كان يحفظ مع القرآن الكريم صحيح البخاري، ومضى على منهج والده في بصرة علوم السنّة حتى قال للحافظ أبي بكر بن الجدد وقد ذكر تشعب أقوال الفقهاء في المسألة الواحدة من الأحكام: «ليس إلا هذا (وأشار إلى المصحف) أو هذا (وأشار إلى أحد كتب الحديث) أو هذا (وأشار إلى السيف)».

وكان لما تمت مبايعته شرع في تمهيد البلاد ورتق بعض الفتوق ثم نوحه بعمره إلى حريرة الأندلس يدبر أمرها ويعزو أطرافها وحرار إليها حواراه الأول سنة 567 فاستولى على شرفيها وكان في يد ابن مردنيش وغزا أرض العدو بنفسه وكانت له فيها وقائع منصوره، وفي هذه السنة بنى جامع إشبيلية وعقد الحضر على واديها بالقوارب وبنى قصبتها الداخلة والزلايق لأسوارها والأرصفة المتدرجة بصفتي واديها وجلب لها الماء من قلعة حابر وأنفق في ذلك أموالاً طائلة، ولم يرل مشغلاً بالجهاد وتعمير البلاد إلى سنة 571 فعاد إلى مراكش بعد عيبة 5 سبن.

ثم حرح إلى إفريقيا سنة 575 لشعب بلعه عن مدينة قمصة فتعهد البلاد برعايته ورد قمصة إلى حظيرة الطاعة وعاد إلى مراكش سنة 577 فوفد عليه ولالة الأندلس ورؤساؤها للتهنئة فأكرم وفادتهم وبلغه أن ألفونس بن شانحة قد شنّ العارة على جهات متعددة كمالقة وريدة وغرناطة فعزم على معاودة الجهاد وحاز حواراه الثاني في سنة 579 ونارل مدينة شنترين وشدّد عليها الحصار، ثم أنه أصدر أمراً إلى ولده الأمير أبي إسحاق ليتوجه بطائفة من الجند لغزو الأشبونة وناحيتها وكان الوقت لبلاً فلما ارتحل الأمير ظن الحبش أن الأمر عام فارتحل بارتحاله فما أصبح النهار إلا وأمير المؤمنين وحده ليس معه إلا خوصه وحاشيته وبعض القواد فتطلع النصاري إليهم فطمعوا فيهم وفتحوا البلد وخرج جميع من فيه خرجة مكرة وهم ينادون «الري الري!» أي اقصدوا لملك، فوقع القتال وبرز يوسف إليهم وقتلهم بسيفه حتى قتل 6 أشخاص وطعن طعنة نافذة، ثم اشدّ الدفاع إلى أن هُرم النصاري وقتل منهم خلق كثير وارتحل يوسف يريد الرجوع إلى المغرب فاشتد ألمه ومات رحمه الله يوم السبت 10 ربيع الثاني 580.

يعقوب المنصور

هو ابن يوسف بن عبد المؤمن تويج يوم وفاة والده بالأندلس ودخل إشبيلية فاستنفر الناس لغزو العدو مع أخيه يحيى ثم رجع هو إلى مراكش فغير المآكر وبسط العدل وكتب إلى جميع بلاده بتسريح أهل السجون ورد مظالم العمال، وأكرم الفقهاء وأهل الفضل

وأجرى الانشقاق على أكثرهم من بيت المال، وفرق في الموحدين وسائر الأجناد ولصعفاء من سيوتات لمغرب أموالاً جمّة، ولذلك أحبه الناس ولهجوا بذكره فلا يزال اسمه جارياً على السنة العامة إلى الآن.

وكان ابن عانية وإلى الجزائر الشرقية من بلاد الأندلس (البليار) لما بلغته وفاة يوسف بن عبد المؤمن قد ثار وأغار سحراً على إفريقية فاحتل بحاية والجزائر ومارونة ومليانة وغيرها وطاهره على ذلك قراقوش مولى صلاح الدين الأيوبي وكان قد تغلب على طرابلس وما والاها زمن يوسف بن عبد المؤمن، فهض إليه المصور سنة 582 وقاتله فهزمه وشرده في الصحراء. ثم أخذ يدبر أمر العرب البازليين بإفريقية وكانوا قد قتلوه مع ابن عانية، ولم يزل دأهم الإفساد في هذه البلاد مد سرحهم الفاطميون للتشويش على موك سي زيري بها، فلم ير أصلح لهم من نقلهم إلى المغرب حيث أعمر بني هلال منهم ناحية العرب وبني جشم ناحية الحوز فانقطعوا عن الصحراء التي كانوا يعتصمون بها.

ولما فرغ المصور من أمر إفريقية وحه نظره إلى أعمال الإصلاح والجهاد وكان قد أبحر إلى الأندلس أول مرة سنة 585 فنارل شنترين وشن الغارات على مدينة الأشبونة وأبلغ في نكاية العدو ثم رجع واغتسم البصاري فرصة اشتغاله في إفريقية فاكتسحوا أطراف البلاد وملكوا عدة مدن فأرسل إلى قواد الأندلس يوبخهم ويأمرهم بالغزو فخرج محمد بن يوسف إلى قرطبة في جيش كثيف

من الموحدين والعرب وأهل الأندلس ففتح مدينة شلب وباجة ويا بورة وكفّ عادية العدو إلى أن رجع المنصور وجعل يستعد لغزوة الأرك الكرى فجمع جيشاً عظيماً من العرب والموحدين وسائر قبائل المغرب فصلاً عن المتطوعة والعبيد وعبر البحر إلى الأندلس سنة 591 فانضم إليه جيش الأندلس وكان يختصه بمزيد المشورة ومضى لا يلوي على شيء حتى نزل بحاصر الأرك وقد خيمت بأحوازه جنود العدو يصيق بها المتسع.

وابتدأت المعركة صباح يوم الخميس 9 شعبان من نفس السنة فشند القتال ما بين الطرفين وجال العدو في المسلمين جولة ثم هت عليهم ريح النصر وهرموا العدو هزيمة شعاء وقتلوا من رجاله عدداً كبيراً وأسروا وعمموا شيئاً عظيماً، إلا أن المنصور من على الأسرى وأطلقهم فعرف ذلك على المسلمين ثم ندم هو بعد ذلك لأنه عرف أنهم لا يد مقاتلوه. وكانت هذه الواقعة أحت الزلافة في حمض شوكة النصارى والتمكين للإسلام في بلاد الأندلس إلى أمد بعيد.

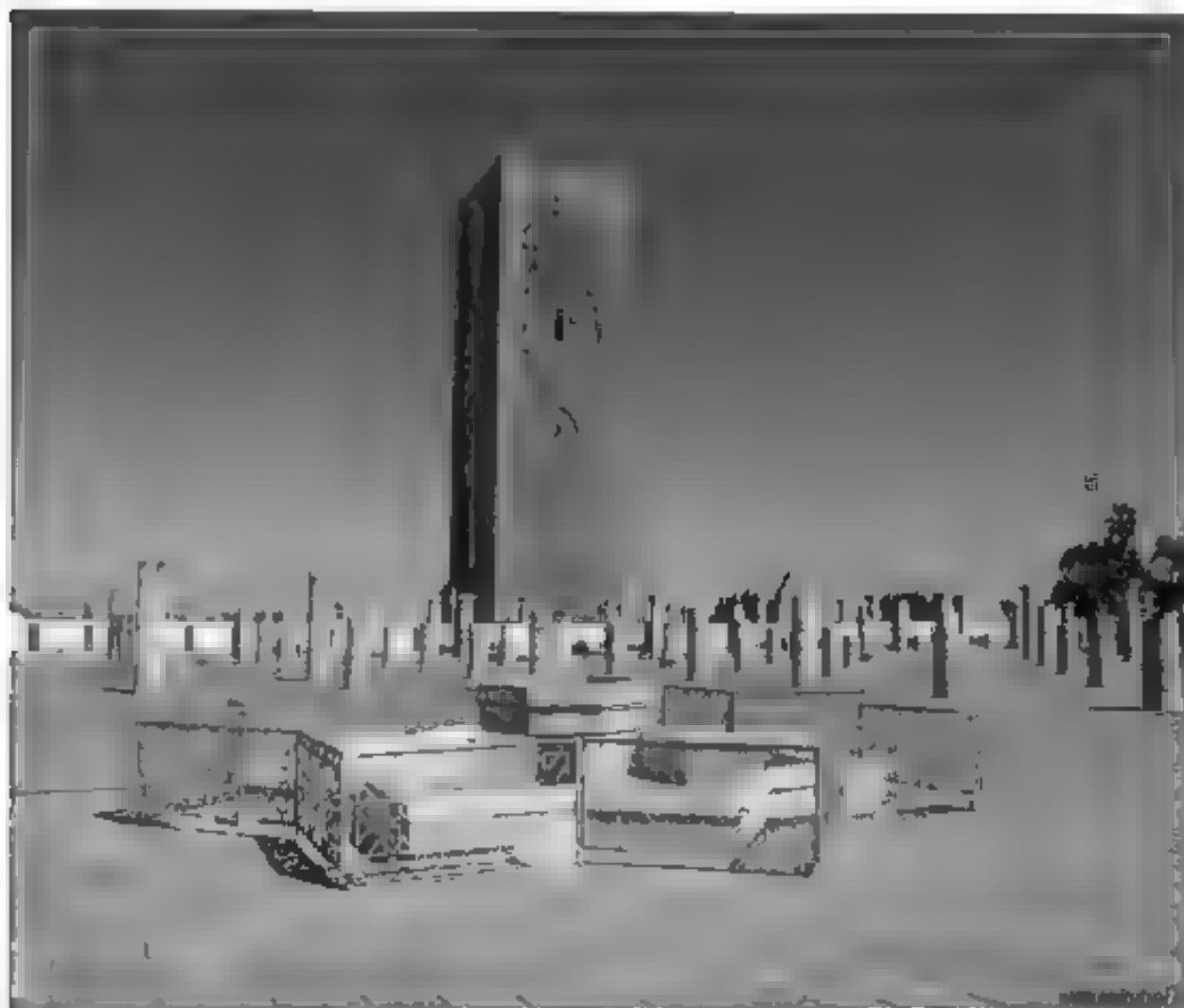
ومع ذلك فإن ألفونس لما رجع مهزوماً إلى طليطلة لم يهدأ له بال حتى جهّز جيشاً لمحاربة المنصور الذي ما بلغه الخبر حتى أرسل إلى المغرب يستنصر الناس وزحف إلى طليطلة فرر إليه ألفونس والتقى الجمعان في ربيع الأول سنة 592 فهزمه المنصور ثم حاصر طليطلة وقتلها قتلاً شديداً وقطع أشجارها وشنّ لغارات على ما حولها من البلاد وفتح فيها عدة حصون مثل قلعة رباح وهي أمتع حصن بالأندلس ووادي الححارة ومجريط وغيرها وفتح في

تلك الأثناء مدينة طلمنكة ولم يقع عن طليطنة إلا لما بلغه الحر عن انتقاض إفريقيا وحينئذ أحاب النصارى إلى الصلح الذي كانوا يطلبونه وحل مدته خمس سنوات فقط، ثم انكها راجعاً إلى المغرب فوصل مراكش في شعبان سنة 594. وكان لما عزم على المسير إلى الأندلس بقصد الجهاد أوصى نوابه ووكلاءه بناء آثار مهمة في مختلف بلدان المغرب فلما رجع وحد كل ما أمر به من البناءات قد تم على أكمل وجه وأحسسه، فمن ذلك بمراكش القصبة وجامعها الأعظم المعروف به والذي اتخذ فيه لمصلاه مقصورة عجبية مدبرة بحيل هندسية بحيث تبرر لدخوله وتختفي لخروجه، ومنار جامع الكنيسة المثل المصروب في الارتفاع وعظم الهيكل، والمسجد الأعظم بطالعة سلا ومدرسته الحوفية، ومدينة رباط الفتح أسسها سنة 593 وسورها وجعلها رباطاً لحيوشه ثم اتسعت دائرتها بعد ذلك إلى أن صار عاصمة المغرب اليوم، ومن آثاره بها جامع حسان ومساره الأعظم هو مثال الصحامة والإتقان، والجامع الآن خرب وأما المنار فقد قيل أنه لم يتم بناؤه فبقي على الحالة التي يبدو بها الآن. وأكمل بناء جامع إشبيلية وشيد منارة المشاكل للمنارين المتقدمين فهو ثلاثة الأثافي بالنسبة لهما، بل قيل أنه ليس في بلاد الإسلام مار أعظم منه وهو (الحيرالدة) المعروفة بإشبيلية. إلى غير ذلك من المساجد والمدارس في بلاد إفريقيا والمغرب والأندلس.

وبنى المارستانات لمرضى والمحاين وأحرى عليهم الإنفاق

في جميع أعماله، ناهيك بمستشفى مراكش الذي يقول عنه المراكشي في المعجب وكان قد حال في بلاد المغرب والمشرو: «ما أطن أن في الدنيا مثله»، ومهد السبل وبنى القناصر وحفر الأنار لماء في البرية واتخذ عليها المنارل من أقصى المغرب إلى أقصاه فكانت المرأة تخرج من بلاد قول فتنتهي إلى رقة وحدها لا ترى من يعرض لها ولا من يمسه بسوء.

وبسط أحكام الناس على الشرع وبظر في أمور الدين والورع وأقام الحدود حتى في أهله وعشيرته واشتد في عقوبة تاركي الصلاة وشربي الحمر، وكان يصلي بالناس الصلوات الخمس ويلبس الصوف ويقف للمرأة والضعيف يأخذ لهم بالحق وينصف من نفسه وعمله، وأمر برفض فروع الفقه نهائياً وإحراق كتب المذاهب وأن لا يفتى إلا من الكتاب والسنة على أساس الاجتهاد. وبالجمله فقد كان واسطة عقد ملوك الموحدين وكانت أيامه رينة للدهر وشرفاً للإسلام وأهله.



تور حسان بالرباط



منظر خارجي للقصر الملوكي العامر بالعاصمة الرباط

وقد اشتهر أن السلطان صلاح الدين الأيوبي استنصر به على الصليبيين في حربه معهم على بيت المقدس ورجاه أن يبعث بأساطيله ليحول بينه وبين أساطيلهم المتدفقة على بلاد الشام فلم يحبه، وأن ذلك فيما يرى المؤرخون لكون صلاح الدين لم يحاط به في رسالته بأمير المؤمنين، وهذا تعليل بارد لا نراه يتفق مع أخلاق المنصور وعلو همته وبعد نظره، وإنما الحقيقة أن صلاح الدين كان سرح مولاه قراقوش لبلاد المغرب سنة 568 ففتح طرابلس وما والاها من البلدان ووضع يده في يد العرب وابن عتبة وشغب كثيراً على المنصور مما سبب له متاعب حمة في بلاد إفريقية لولاها لكان له في بلاد الأندلس فتوحات عظيمة لا تقدر بقيمة فهذا هو السبب الحقيقي في أعراض المنصور عن نحنة صلاح الدين الذي صر به من الخلف وأراد أن يغرر به لإتمام الضربة، وإلا فأعمال المنصور في الجهاد وإعلاء كلمة الإسلام لا تقل عن أعمال صلاح الدين.

ويقال إنه بعد أن صرف رسوله حهز من أساطيله لهذا الغرض 180 قطعة ومع النصارى من سوحل الشام.

ويؤيد هذا ما له من الصيت العظيم عند أهل الشام حتى أنهم أقاموا له مشهداً بالقرب من دمشق. والمستقبل كميل بتحقيق هذه المسألة.

وكان المنصور لما رحع من الأندلس أخذ البيعة بولده محمد الناصر فبايعه كافة الموحدين وسائر الرعية ثم أحلسه في محل الخلافة وجرت الأحكام على يده وصدرت الأوامر باسمه فلما رأى

المنصور أن الملك قد استدف لولده دخل قصره فلزمه حتى مات في سنة 595.

وقيل أنه ساح في الأرض حتى انتهى إلى بلاد المشرق وهو مستخف ومات هناك حاملاً.

وإذا صح هذا الأمر فلعله كان ينوي غزو الشرق حزاءً وفاقاً لما فعل معه صلاح الدين فذهب بنفسه لوضع خطة ذلك، ولكن الأهل المحتوم عاجله فصار إلى رحمة الله.

محمد الناصر

سويح في حياة أبيه ثم حددت له البيعة بعد وفاته وفام بأمر الدولة أتم قيام فأخضع الثوار وجدد معالم البلاد، وأهم الأحداث في أيامه أمران:

(1) ثورة ابن غانية بإفريقيا الذي طالما روع أمر تلك البلاد في أيام المنصور ولحقاً إلى الصحراء متربصاً بالدولة الدوائر فحالما سمع بموت المنصور برر على المسرح أيضاً واستولى على أعمال قراقوش بطرابلس وعلى المهدية وبلاد الحريد وتونس والقيروان وامتحن الأهالي بأنواع العذاب فلما بلغ الخبر إلى الناصر نهض إليه سنة 600 وبعث لأسطول في البحر، وما شارف الناصر بلاد إفريقيا حتى هرب ابن غانية واستجاش العرب على الناصر الذي سرح إليه قطعة من الجيش بقيادة وزيره عبد الواحد بن أبي حفص الهناتي فلقه بحبل تاحورة من ناحية قابس فقتله واستراحته البلاد والعباد

من مكره وعيبه.

ثم شدد الناصر الحصار على المهدية وكان ابن عانية قد أودع بها ذنائبه وحرمه ففتحها في 27 ح ل 602 وكى يقطع دابر فساد هذه العائلة بعث بأسطول من مرسى الجزائر إلى جزيرة ميورقة من جزائر الأندلس الشرقية وكانت كما سبق القول بيد ابن عانية ودارلها ثم قنحها عروة وقتل بها أخو ابن عانية وبذلك استدف الأمر للناصر في المغرب الأدنى وولي عليه وزيره وثقته عبد الواحد ابن أبي حفص ورجع إلى المغرب.

(2) عروة العقاب بالأندلس وذلك أن لناصر جهر جيشاً عظيماً أرى على جميع ما تقدمه من الجيوش وقصد بلاد الأندلس مريداً القضاء على العدو لما بلغه من استطالته على ثغور المسلمين وانهابه لهم إلا أن هذه الجيوش الكثيرة كان يعوزها القيادة والتدبير، فالوزير الناصح عبد الواحد بن أبي حفص بإفريقيا وناصر لقوته وحسن استعداده كان مستبداً برأيه، والمشير والوزير الوحيد الذي كان متمكناً منه، وهو ابن جامع، سبى النظر فسد السريرة، فضربت بين القواد وحقر جيش الأندلس وعمى أخبار الثغور عن الناصر، وكان الناصر قد نازل حصن سلبطرة وهو حصن منيع فاستصعب عليه وطالت مدة محاصرته له ولم يتركه الوزير ابن جامع يحاوره فساءت حالة الجيش المعنوية، ثم أن ألعونس افتتح في هذه المدة قلعة رباح فمت ذلك في عصد الناصر وكاد يموت غماً، فلما لقي المسلمون البصاري في هذه الواقعة التي تعرف بالعقاب كانوا من

الكلال والصعف بحالة لا توصف واحذل عنهم جيش الأندلس، فوقعت الهريمة على الناصر وفنى جيشه ولم يبق منه إلا القليل.

وكانت هذه الرزية العظيمة يوم الإثنين 5 صفر 609 وهي من الوقائع الفاصلة التي عجت سقوط الأندلس وأدالت للنصرانية بها من دولة الإسلام والله غالب على أمره.

ثم رجع الناصر بعد ذلك إلى المغرب وليس له هم إلا أخذ النار وإعادة الكرة على العدو، فجعل يستجيش الجيوش ويعد العدة ولكر الأجل عاجله فتوفي ليلة الثلاثاء 10 شعبان 610 بعد أن أخذ السبعة لولده يوسف فاحل العرم وتفرقت الحموع وكان ولده هذا مصعفاً مشعوفاً براحته لم يرح الحصرة، فصعفت الدولة في أيامه وبدت الفتوف فيها من كل ناحيه، ورعماً عن أنها امتدت إلى سنة 674 فإنه لم يَلِ أمرها واحد من طرار المصور ولا الناصر بل كل من ولي بعد ذلك كان مشغولاً بذات نفسه ومحاربة إخوته وبني عمومته من الثائرين عليه فصلاً عن ظهور بني مرين واشتداد خطرهم يوماً بعد يوم.

وقد استقلت إفريقيا في هذه الأثناء بأمره الحفصيين أثناء عبد الواحد بن أبي حمص الهنتاني الذي كان الناصر ولّاه عليها، ثم الأندلس بأمره بني الأحمر أصحاب عرناطة بعدما سقطت قرطبة وإشبيلية في يد العدو، وكانت الجزائر كذلك تسير في طريق الاستقلال تحت إمارة بني ريان ولالة تلمسان، وهكذا تفككت أحرار الامراتورية الموحدية العظمى.

المغرب في عهد الموحدين

إن الانقلاب الموحيدي وقد تم في نهاية السرعة لم يعير من أحوال البلاد كثيراً فلم تتعطل بسببه حركة من حركات الإصلاح والتحدد، والأمة ما شعرت أنها فقدت ملكها العامل علي بن يوسف ابن تاشفين سنة 537 حتى وجدت على رأسها الحيفة المقتدر عبد المؤمن بن علي سنة 541 فلم تقف سيرها نحو التقدم والكمال. وإذا بنهضة المعارف والفسور تصل إلى أسمى عاياتها فتتعرش علوم الشريعة بتعضد الحلفاء الموحدين للأخذ بالكتاب والسنة، حتى أحيى الاجتهاد الذي كان قضى عليه تعصب الفقهاء، وتنتشر علوم الفلسفة والطب والرياضيات انتشاراً عظيماً كان له تأثير كبير في بهضة العلوم بأوروبا الحديثة. وأما عن الشعر والأدب فحدث ولا حرج. كذلك نشطت التجارة والصناعة والاقتصاديات عموماً مما أدى إلى تمويل الناس وانغماسهم في الحضارة والترف.

وأما العمارة والأمر فحسبك ما ذكرناه من الآثار العظيمة والمرافق العمومية والمدن التي بُنيت في هذا العصر في سائر أطراف المملكة الموحدية الشاسعة الأطراف، وقد قيل عن انبساط الأمن في هذا العهد أن المرأة كانت تخرج وحدها من أقصى المغرب إلى أدناه فلا يتعرض لها أحد بسوء وذلك ناتج عن عدل خلفاء الموحدين واهتمامهم بمصالح الرعية وتربية الناس بالبرعيب والترهيب، فيقال إن لدير كان يقع من الرجل في الشارع العمومي

فيبقى ملقى لا يرفعه أحد عده أيام إلى أن يأخذه صاحبه، وأن القاصي كان يمكث الشهر وأكثر لا يحد من يحكم عليه لتناصف الناس وتهذيب أخلاقهم، وأن الخليفة كان ينظر بنفسه في المظالم حتى ليحكم في قضية الدرهم والدرهمين وينصف من نفسه ويمثل حكم القاصي عليه.

ولم تكن الدولة تحيي من الناس ما عدا خراج الأرض الذي وصعه عبد المؤمن وياقي دخلها إما يتكون من الركوات والأعشار والغنائم ونحوها، ومع ذلك فقد كانت ميزانية الحكومة ضخمة جداً كما تقضي به هذه الآثار العظيمة التي خلفتها من بعدها شاهدة بعلو الهممة وبعد الشأو فضلاً عن ضبطها أطراف لمملكة الشاسعة وكفائها أمر الجند الذين كان يبلغ عددهم في بعض الأحيان إلى المليون واستكثارها من الأساطيل البحرية حتى لقد بلغ ما صنع لعبد المؤمن وحده 400 قطعة.

واستنتج ابن خلدون من قصة استنحاد صلاح الدين الأيوبي بأساطيل المنصور اختصاص ملوك المغرب يومئذ بالأساطيل الجهادية، وعدم عناية الدول بمصر والشام لذلك العهد بها، بل إننا نرى اختصاص المغرب بذلك حتى عن الدول الأوروبية المحاورة، بدليل أن ألبونس لما سمع باستعداد المنصور لحربه كتب له يقول مهدداً «أن أبعث إليّ بأساطيلك لأعبر إليك البحر وأقاتلك في بلادك فلا تحمل مشقة الانتقال إلى هنا» وذلك في وقعة الأرك المتقدمة.

فحقاً إن هذا العهد كان أمجد عهود المغرب ومنتهى عظمته لم يز مثله فيما مضى ولا فيما غير، وإن كان له في المستقبل أمل أحلّ وأكبر.

— أسئلة —

- (1) من هم الموحدون ولماذا يقال لهم ذلك؟
- (2) من الذي أنشأ هذه الدولة وكيف كان مبدأ أمره؟
- (3) كيف كان يربي أصحابه وما هي فلتته في البدعة؟
- (4) متى مات ومن الذي خلفه؟
- (5) في كم مدة مهد عبد المؤمن المغرب وقضى على دولة المرابطيين؟
- (6) ما هو العمل الذي كون به المغرب دولة عظمى؟
- (7) ما هو عمل عبد المؤمن في الأندلس وكيف كان استعدادة للجهاد؟
- (8) ما هي إصلاحاته الإدارية والاجتماعية؟
- (9) ما هي مآثره العمرانية؟
- (10) متى مات وكم بقي في الحكم؟
- (11) ما هي أحسن أعمال يوسف بن عبد المؤمن وأهم مآثره؟
- (12) كيف مات يوسف وكم سنة حكم؟
- (13) بماذا افتتح يعقوب المنصور مدة حكمه؟
- (14) من الذي شغب عليه بإفريقيا؟

(15) كيف حل مشكلة العرب الذين كانوا يهددون أمر الدولة بإفريقيا؟

(16) ما هي فتوحه الأولى في الأندلس؟

(17) ما هي الوقعة العظمى التي كف بها عادية الصاري وكيف حرت وما هو تاريخها؟

(18) ما هي فتوحه الأخرى في الأندلس؟

(19) ما الذي أزعجه عن الأندلس حتى لم يستعد من انتصاره المائدة المرجوة؟

(20) على من تقع مسؤولية هذه الاضطرابات الإفريقية بالتدقيق؟

(21) ما هو السبب الحقيقي في عدم إيجاد المنصور لصالح الدين بأساطيله البحرية؟

(22) ما هي آثار المنصور في الحضارة والعمارة؟

(23) متى توفي المنصور وكم حكم وما هي الإشاعات حول موته؟

(24) ما هي الحرب التي نجح فيها الناصر وضم بها مستقبل دولته؟

(25) كيف لم تنجح عزوة العقاب وما هو الأثر السيئ الذي تركته في المسلمين؟

(26) كيف تفككت أجزاء الامبراطورية الموحدية؟

(27) متى انقرضت هذه الدولة وكم كانت مدتها منذ القضاء على المرابطين؟

- (28) إلى أين بلغ نفوذ الموحدين في المغرب والأندلس؟
- (29) ما هي الحالة العمومية بالمغرب في أيامهم؟
- (30) قارن بين مؤسس دولتهم ومؤسس دولة المرابطين وقل ما هي المصائل التي امتاز بها كل منهما؟
- (31) قارن بين عصر الموحدين وعصر المرابطين وادكر ما بيهما من الفوارق والمميزات؟

دولة بني مرين

بنو مرين فخذ من زناتة كمغراوة وبني يفرن المتقدمين. وزناتة قبائل عديدة كانت مواطنهم فيما بين الرب وسحلماسة، يعني من سكرة إلى تفيلالت. وكان من عاداتهم أن ينتجعوا بلاد المغرب زمان الربيع والصيف ويمتاروا منها للشتاء.

فلما أقبلوا إليه عام 610 وكان على ما وصفناه من الفحيجة والصياح بعد هزيمة العقاب وموت الناصر الموحدي، صاروا يغيرون على أطرافه ويكتسحون أراضيه فلا يحدون من يقف في حوهم، واستفحل أمرهم شيئاً فشيئاً إلى أن اضطروا الموحدين لمقاومتهم ولكنهم انتصروا عليهم وقويت شوكتهم فكانوا كلما وجهت لدولة إليهم جيشاً هزموه.

وكان الأمير عليهم حين دخولهم المغرب عبد الحق المريني، وكان رجلاً فاضلاً دينياً متورعاً له نفوذ وحاه في قبائل زناتة كلها. ويكسب الأملأ لأنه ملك من أولاده لما مات أربعة: أبو سعيد عثمان وأبو معرف محمد وأبو بكر ويعقوب لمصور الذي قصى على دولة الموحدين تماماً وفتح مراكش عاصمتهم وخص له ملك المغرب وذلك في سنة 674.

يعقوب المنصور المريني

تولى بعد وفاة أخيه أبي بكر سنة 656 ولما صفا له ملك المغرب بى المدينة البيضاء ملاصقة لمدينة فاس وهي المعروفة بفاس الجديد سنة 674 واتخذها عاصمته.

وكن د دير متين موصوفاً بالحلم والجود والتواضع، محناً للعلماء مجالساً لهم صادراً في أكثر أموره عن رأيهم. وبنى المارستانات للمرضى والمحابين ورتب لهم الأطباء لتفقد أحوالهم وأجرى على الكل المرتبات والنفقات من بيت المال. وكذا فعل بالجذمي والعمى والفقراء رتب لهم مالاً معلوماً يقبضونه في كل شهر من جرية اليهود، وبنى المدارس لطلبة العلم ووقف عليها الأوقاف وأجرى عليهم بها المرتبات. وبالحملة فقد كان من أعظم ملوك هذه الدولة وممن قعد أصولها وأسس قواعدها.

وأما أعماله في الجهاد فهي سجل ذهبي يحمطه له التاريخ أداً، وكان ميمون النقية مصور الراية لم يقصد حيشاً إلا هزمه ولا عدواً إلا غلبه. ففي سنة 673 أوفد إليه ابن الأحمر صاحب غرناطة وفداً من مشيخة أهل الأندلس يستنصره على العدو الذي استأسد على المسلمين ولم ينتصروا منه بعد واقعة لعقب المشؤومة، فأرسل إليه حيشاً أمّر عليه ابنه أبا ريان فمضى وقاتل العدو في بلاده وكسر شوكنه وكف عادينه عن المسلمين إلى عام 674 حين حار المصور بنفسه في جيش كثيف إلى الأندلس وأعمل السلاح في رقاب العدو

واكتسح أراضيتهم وقتل رعيهم (بوة) الذي طالما قاسى المسلمون منه الشدائد.

ثم رجع إلى المغرب، ومن العام التالي عاد أيضاً إلى الأندلس فقاتل العدو في ضواحي إشبيلية وشريس وصيق عليه الحناق وبازل قرطبة فدخل حصن الزهراء فطلب العدو لصلح وتوسط فيه بالقسوس والرهان فأحيب إليه وتنازل المنصور عن الغنائم لاسن الأحمر ثم رجع إلى لمغرب.

ونفس ابن الأحمر على المنصور ما آتاه الله من الظهور والعلبة فمالأ العدو عليه وحطب يعمراسن صاحب تلمسان في حبليهما، فلما ظنوا أنهم قد أحاطوا بالمنصور نازل العدو الجزيرة الخضراء بمعاونة ابن الأحمر، وكانت هي وطريف ومالقة وبعض الحصون الأخرى تابعة لمملكة المغرب، ولكن الله سلم فلم تسقط الجزيرة وتعلب أسطول المنصور بقيادة ابنه الأمير يوسف على العدو ففك الحصار عن الجزيرة الخضراء وندم ابن الأحمر على سوء صنعه فحلم عنه المنصور.

ثم حاز المنصور ثالث مرة إلى الأندلس وكان ألفونس⁽¹⁾ العاشر قد استصرخ به على ابنه ساحرة الحارج عليه فتقدم يقاتل العدو في

(1) المصادر العربية تسمى الملك المستصرخ بالمنصور هراودة - يعني هرياندو - وهو في لواقع الفونس العشر المتب بالحكم (Alonso el Sabio) إد هو الذي عقه ابنه سانشو الذي تسميه المصادر العربية ساحرة وحرخ عليه وهذا ألفونس هو ابن هرياندو الثالث فاتح قرطبة وإشبيلية وغيرهما، فعدل الاسم كان في المصدر الأصلي (الفونس بن هراودة) فسقطت كدمة الفونس وتناح الكتاب بعد ذلك في هذا الخطأ.

باحية قرطبة وبثّ السرايا في نواحي حيان وطلبيلة حتى انتهت إلى حصن محريط وهو عاصمة مدريد اليوم. وكان ألفونس العار المستصرخ به مصاحباً له في حركته هذه وقد التمس من المنصور أن يمدّه بشيء من المال يستعين به على إعادة ملكه فأسلفه المنصور مائة ألف دينار رهنه ألفونس فيها تحه الموروث عن سلمه.

ورجع المنصور إلى المغرب ثم جاز إلى الأندلس حواراه الرابع سنة 683 وكان ألفونس حليفه قد توفي وولي ولده ساحبة فأغار على شريس ونواحيها ثم على إشبيلية وليلة وقرمونة وغيرها من الحصون وانتسف العمران وخرّب البلاد فصج العدو من ذلك وصرع في طلب الصلح فوفد على المنصور في جماعة من كبار دولته فتلّقاء المنصور وأجابه إلى الصلح وشرط عليه شروطاً كلها في صالح المسلمين وطلب منه أن يوجه إليه كتب العلم التي بقيت لمسلمين بلاده، فوجه إليه منها 13 حملاً فيها كثير من المصاحف وكتب التفسير والحديث والفقه واللغة فأرسلها المنصور إلى فاس وحبسها على طلبة العلم.

وبعد هذه الأعمال الحليّة مرّص لمنصور مرصه الذي توفي فيه فلحق نربه يوم الثلاثاء 22 محرم فاتح عام 685 في قصره من الجريرة الحصراء وحمل إلى المغرب فدفن بمسجد شالة رحمه الله.

أبو الحسن المريني

هو السلطان أبو الحسن علي بن أبي سعيد عثمان بن يعقوب المنصور يعرف بالسلطان الأكحل لأنه كان أسمر اللون. تولى بعد

وفاه والده سنة 731 وكان بعيد الهممة عالي الصيت شجاعاً مقداماً عالماً أديباً عماً ماثلاً إلى التقوى أعظم سلطان في هذه الدولة، سبط بموذه على المغارب الثلاثة فبلغ ملكه ما بين مسراتة إلى السوس الأقصى من هذه العدو وإلى رندة من عدوة لأندلس، إلا أنه كان قليل الحظ لم يستقم له الأمر على ما أراد.

فبعد أن مهد ملك أبيه وانتظمت بلاد المغرب كلها في طاعته وجه نظره إلى الأندلس وكان العدو قد استولى على جبل طارق منذ سنة 709 وراحم به ثغور المسلمين فوجد ابن الأحمر على أبي الحسن وفاوضه في شأن الجهاد وما يرجع على الدولتين بحير، فأكرم السلطان وفادته وأسرع فوجه معه ابنه أبا مالك وعقد له على حمسة آلاف من أنجاد بني مريب لمبارلة جبل طارق فاحتل أبو مالك بالجزيرة الخضراء وتنابعث إليه الأساطيل بالمدد وأرسل ابن الأحمر في الأندلس حاشرين فتسائل إليه الناس من كل جهة وزحفوا إلى الجبل وأحاطوا به وألدوا في حصاره البلاء الحسن حتى فتحوه عنوة سنة 733، واهتم بعد ذلك سنائه وتحصينه وأنفق عليه أحمال المال وسوره وننى أبراجه فصار بحيث لا يطمع أحد في منازلته.

ثم في سنة 740 أوعر إلى ابنه أبي مالك بالدحول إلى دار الحرب وجهز إليه العساكر من حصرتة فتوغل أبو مالك في بلاد العدو عارياً وألغ في الكاية فجمع له العدو أحشاداً كثيرة وشخص نحوه فأشار عليه المملأ بالحروح من أرضه فأبى لغرارة الشباب فصبحه العدو وأوقع به وبعسكره.

وانصل الحر بأبي الحسن فتمجع لهلاك ابنه ثم تجهز للأخذ بثأره وارتحل إلى سبتة وأخرج الأساطيل من مراسي المغرب وعقد عليها لمحمد بن علي العزفي وأمره بمناجزة أسطول العدو بالزقاق فكانت معركة بحرية عنيفة كتب الله فيها الطفر للمسلمين فاستلحموا العدو وقتلوا قائد أسطوله واستاقوا مراكمه إلى مرسى سبتة وكان يوماً من أعز أيام الإسلام.

ثم عزم السلطان على مازلة طريف وكانت قد سقطت في يد العدو سنة 691 م شرع في إجازة لعسكر من المتطوعة والمرترقة وانتظمت الأساطيل سلسلة واحدة من العدو إلى العدو ووافاه ابن الأحمر في عسكر الأندلس فعسكر حذاء معسكره وحاصروا طريفاً وبصبوا عليها آلات القتال فجهز العدو أسطولاً آخر اعترض به بحر الرقاق لقطع المرافق عن المعسكر، وطل مقام المسلمين حول طريف وأخيراً وقعت عليهم الهزيمة وتراجعوا ممحصبين وذلك سنة 741.

ولما رجع العدو من طريف منصوراً استأسد على المسلمين بالأندلس وأخذ قلعة بني سعيد وهي ثغر غرناطة عاصمة اس الأحمر على مرحلة منها، فأخذ أبو الحسن نفسه بالعود إلى الجهاد لوقف العدو عند حده فجهز الأساطيل ووجهها مشحونة بالجود إلى ثغور الأندلس فلقيت أسطول العدو ببحر الزقاق ونشب القتال بين الفريقين فكانت الكرة على المسلمين أيضاً، وبذلك قويت نفس العدو فأرسل الجزيرة الخضراء وطولها الحصار حتى استسلمت سنة

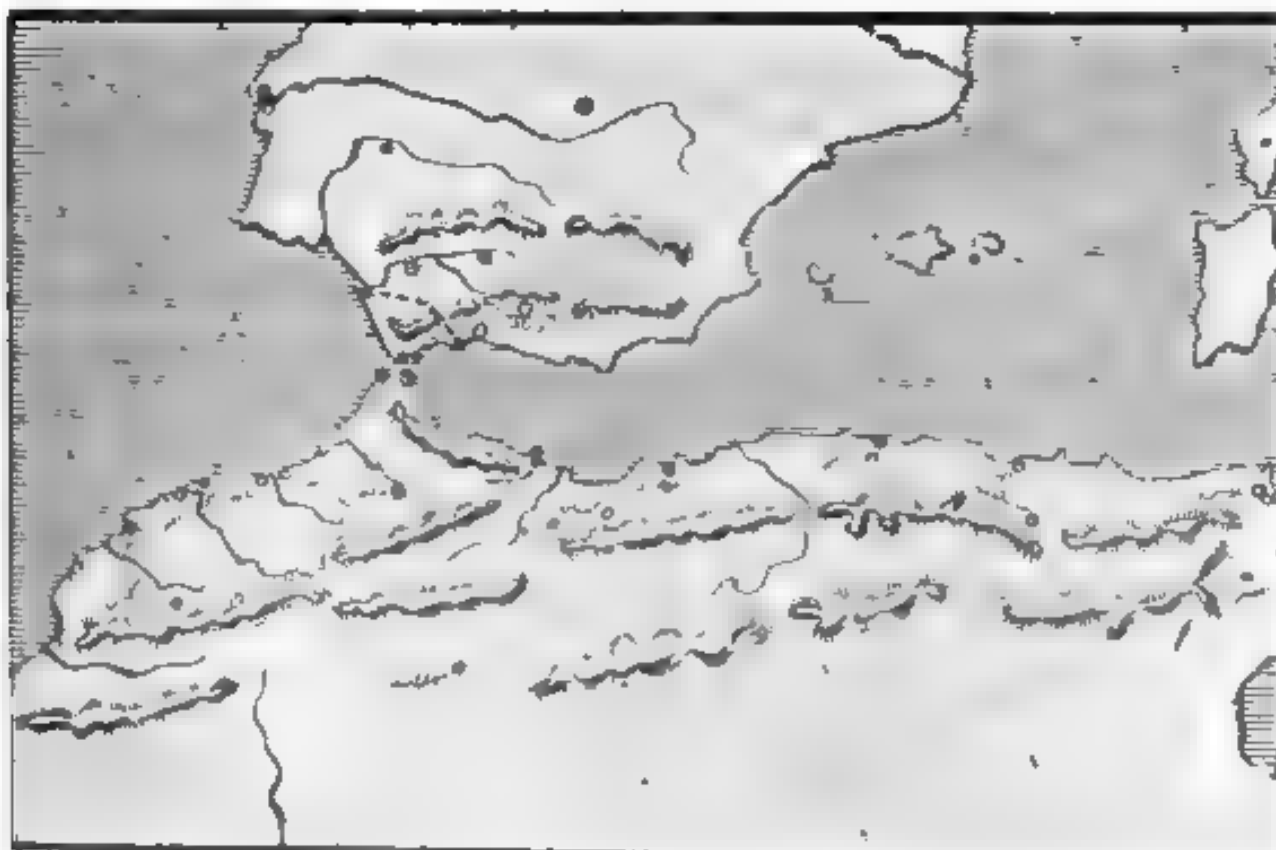
743 فأحار أهلها إلى المغرب وأحسن أبو الحسن نزلهم.
وبهذا تعلم ما قلنا من أن أبو الحسن لم يكن محظوظاً مع ما
كان عليه من علو الهمة وشدة البأس.

وهكذا كان حاله في إفريقيا فإنه فتح تلمسان التي امتنعت على
أبيه وحده وعمه يوسف الناصر مع طول محاصرتهم لها، وقتل ملكها
أبا ناشمين سنة 737 وبذلك دخلت إيالة بني ريان من المغرب
الأوسط كلها في مملكته.

ثم استولى بعد ذلك على بقية الشمال الإفريقي ودخل تونس
سنة 738 فانقرض ملك الحفصيين أصحابها وانتظم سلطانه كامل
شمال إفريقيا كما قدمناه، إلا أنه لم يهأ بذلك حيث شغب عليه
العرب من بني سليم وهلال لأنهم اعتادوا من ملوك بني حفص أن
لا يجمعوهم من عيث أرادوه وأن يقطعوهم الإقطاعات الكثيرة في
الضواحي والأمصار، فلما جاء أبو الحسن وكان من الصط والحزم
بمكان مكين، صرب على أيديهم وانتزع منهم تلك الإقطاعات
وسلك بهم سبل العرب الذين بالمغرب من لروم الطاعة والإحلال
إلى السكون، فصاقوا بذلك ذرعاً ورفعوا علم العصيان.

وتتابع انتفاض الأطراف فقامت قسطينة بدعوة بني حفص
وتلمسان بدعوة بني ريان وكثرت الفتوق وجاء الطاعون الجارف
فقضى على كثير من حاشية السلطان حتى أرحف الناس بموته
وعميت أنبؤه على أهل المغرب، فقام ابنه أبو عان يجمع شتات
المملكة. دعا لنفسه فبايعه الناس سنة 749.

مملكة بني مرين



تمثل هذه الخريطة
المملكة المرينية وخاصة على عهد السلطان أبي الحسن

ولما وصل النبأ إلى أبي الحسن أحجم الرجوع إلى المغرب فركب أساطيله وكانت تزيد على 500 قطعة فحاء سوء الحظ أيضاً وعصف بتلك المراكب فغرقت عن آخرها ومضى شهيد العرق كثير من رحالات المغرب وخاصة العلماء الذين كان أبو الحسن لا يستعني عنهم وعددهم نحو 400 عالم ونجا هو على لوح.

ولما وصل إلى المغرب لم ينزل له ابنه أبو عنان عن الملك فتقتلا وكانت الدائرة على الوالد المسكين الذي كانت أيامه في أديار، ثم تصالحا وتنازل أبو الحسن لولده عن الملك وأقام منروياً بحبل هتانة إلى أن وافاه أحله في عام 752 فنقله ابنه أبو عنان إلى شالة ودفنه مع ملوك بني مرين.

وقد أظهر أبو الحسن في كل هذه المواقف من ضروب الشجاعة والثبات ما هو خليو بالأبطال أمثاله، ومع ذلك فإن عظمته لا تتمثل في هذه الأعمال الحربية فقط، بل في المنشآت العمومية كالمدارس والمساجد والربط، فمنها المدرسة العظمى بمراكش المعروفة بمدرسة ابن يوسف، ومنها لمدرسة العظمى بطالعة سلا وكلاهما على غاية من الفخامة والزخرفة لا تدرك، ومنها المدرسة الجديدة بمكناس وكان قد استعلى ما صُرف في بنائها فلما وقف عليها وأعجته، أخذ حسابها وغرقه في صهر يحها وأنشد:

لا بأس بالغالي إذا قبل حسن ليس لما قرّت به العين ثمن

وله بفاس آثار أخرى. وكانت العلاقات بينه وبين ملوك الشرق على أحسن ما يرام، فالمراسلات بينه وبين ملوك مصر الناصر بن

قلاوون وابنه أبي الفدا متصلة. وكان قد كتب حطه ثلاثة مصاحف وجمع لها القراء والخطاطين والمجلدين والمدهين والنقاشين وأخرجها في حلة فريدة من الفن لمعربي الديع وأرسلها وقفاً على المساحد الثلاثة المقدسة وأوقف عليها من الضياع والرباع ما يقوم بكفاية القائمين عليها والقارئ فيها.

إلى غير ذلك من مآثره، ومن شعره الذي يشفّ عن نفسه الكبيرة:

أرضي الله في سري وجهري	وأحمي العرض من دنس ارتياب
وأعطي الوفر من مالي اختياراً	واضرب بالسيوف طلى الرقاب

من المدارس المرينية بمراكش



صورة تمثل منظرًا من مدرسة ابن يوسف الشهيرة



قبر السلطان أبي الحسن المريني ورخامته
بمقبرة الملوك المرينيين في شالة قرب مدينة الرباط

— أبو عنان —

هو السلطان أبو عنان فارس بن أبي الحسن تولى في حياة والده على ما تقدم. وكان فارساً كاسمه شجاعاً مقداماً حسن السياسة والتدبير، فقيهاً عالماً بالمنطق والأصول والعربية والحساب، حافظاً القرآن والحديث، عارفاً بعلومهما، فصيح القلم شاعراً مجيداً، من شعره قوله.

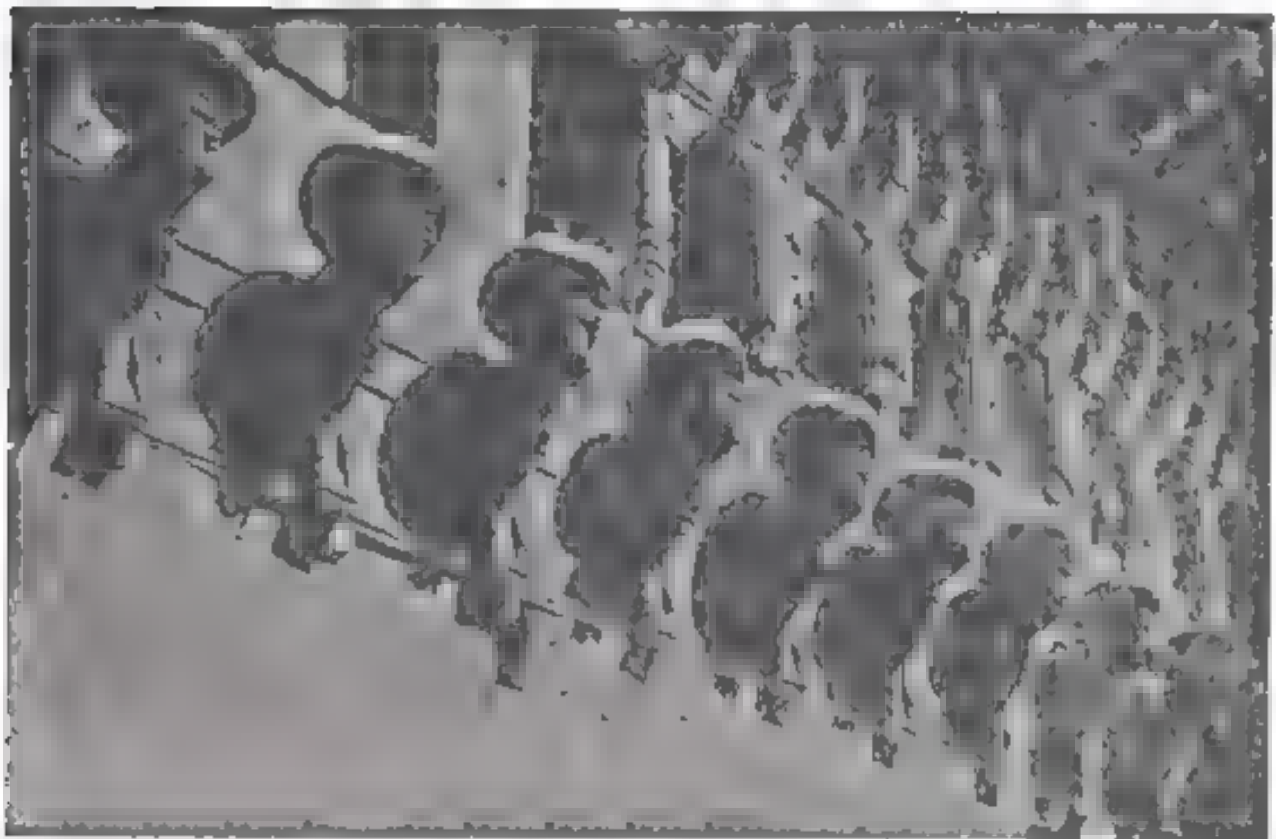
وإذا تصدر للرياسة جاهل جرت الأمور على الطريق الأعوج

ولما استهدف له ملك المغرب بعد وفاة أبيه ولم يبق له منازع سما بطره إلى توحيد إفريقيا الشمالية وإعادة فتح تلمسان وتونس بعد ثورتها على والده.

ففي سنة 753 نهض يريد تلمسان في جيش كثيف فاصطدم هو وصاحبها أبو سعيد الزياني ثم تعلب عليه وقتله ودخل تلمسان فقتل شيعه أبي سعيد وكل من كان له صاغية إلى بني زيان، حتى صمما له ملك القطر الجزائري فقصطه وثقف أطرافه ورجع إلى المغرب.

وفي سنة 758 شحش إلى الجزائر يريد إتمام فتح الشمال الإفريقي فنازل قسطية وكانت تحت إمارة الحفصيين فأدعت لطاعته ثم سرح جيشه جهة تونس وبعث أسطوله فنزلها بحراً ولم تشب أن سقطت في قبضته، فجعل يعالج أمر العرب ويحاول إخصاعهم للطاعة، ولما لم تستقم له قناتهم وأحس منهم بالخطر الذي أصاب والده من قبل، كرّ راجعاً إلى المغرب.

من الآثار المرينية



صورة تمثل أجراس الساعة
التاريخية الشهيرة التي ركبت بواجهة المدرسة العنانية

ومن السنة الموالية برر إلى تمسان وسرح إليهم وريره سليمان ابن داود في عسكر محر فحاس خلال ديارهم واستعان بمن أطاع منهم على من عصى حتى خصد شوكتهم وقلم أظفارهم.

ورجع السلطان إلى دار ملكه بفاس حيث مرض ومات مخنوقاً في 28 حجة متم عام 759 وهو ابن 30 سنة. دخل إليه وريره الحسن ابن عمر الصودودي بمكانه من قصره وهو مريض فعطه حتى أنلمه. وكان بينه وبين ولي العهد أبي زيان محمد بن أبي عنان نصره مستحكمة فسعى في تحويل الأمر عنه إلى أخيه أبي بكر السعيد وهو طفل خماسي وارتكب هذا الإحرام المظيع.

وحلف السلطان أبو عنان أثراً شاهده بعظمته وعلو قدره كمدرسه العنانية وهي قطعه حائدة من الفن المعماري الحميل، وأما الساعة التي كانت مركبة بواحتها وبقيت أحرسها معطلة إلى الآن فهي من أعظم الايات على ما بلغت إليه الصناعة المغربية من الدقة والإتقان. وهذا السلطان هو الذي أمر بصب العلم في المآذن نهراً وإيقاد السرج ليلاً ليعرف الناس أوقات الصلوات عن بعد وذلك من شدة اعتناؤه بأمور الدين.

هذا ومن تاريخ وفاة أبي عنان أخذت دولة بني مرين في التلاشي وعظم استبداد الوزراء على الملوك، فمنهم من كانوا يضربون على يده فلا يتركون له من الأمر شيئاً، ومنهم من كانوا يقتلونه إذ أخافوا من بادرته، وهكذا حتى ثارت الأمة على آخر ملوك بني مرين لظلمه وعسفه وخلعته وحكمت عليه بالموت فأعدم صبيحة

يوم الجمعة 27 رمضان سنة 869 وأقاموا ملكاً عليهم الشريف أبا عبد الله الحميد فبقي ريثما قامت الدولة الوطاسية التي خلفت دولة بني مرين والملك لله.

المغرب في عهد بني مرين

انتشرت المعارف في هذا العهد انتشاراً طائلاً وصار أبناء المغرب من شتى القائل يتنافسون في الدراسة والتحصيل ونفع أفراد عديدون في كثير من فروع العلم رفعوا رأس المغرب عالياً في هذا الميدان.

فيسما كان رجال الدولة في منارعاتهم وحروبهم كان رجال الثقافة يعملون على توطيد مجد المغرب في عالم الأدب والعرفان، وذاك وأبيك المجد الحقيقي الذي تذهب الفتوحات وتدول الدول وهو لا يذهب ولا يدول.

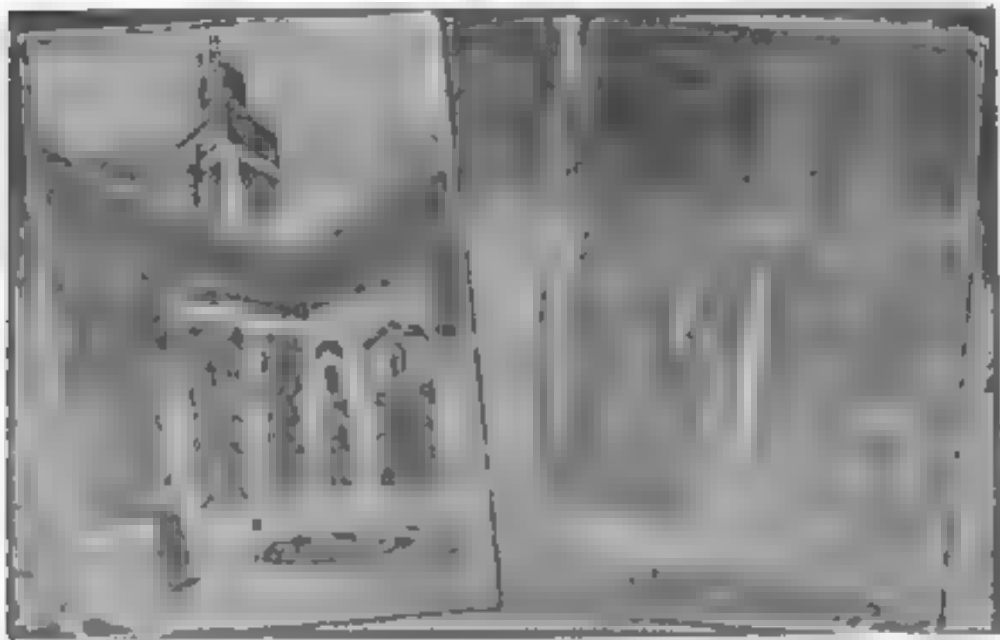
وهذه الظاهرة وهي نشاط الحركة العلمية بين الشعب من تلقاء نفسها مع كون لقائمين بها من أبناء المغرب الأقحاح، هي التي مكنت للمعرفة أن تبقى رائحة السوق ولو بعد ضعف الدولة وصبرورتها إلى الاضمحلال، وتأمل في أمر واحد وهو ما المعيا إليه من قبل في حادث غرق أسطول السلطان أبي الحسن المريني حيث ذكرنا أن حملة من عرق فيه أربعمئة عالم ممن كان السلطان قد صاحبهم في حملته تلك على شمال إفريقيا، وعادة لا يصحب السلطان إلا جهابذة أهل العلم. فإذا كان عدد من صاحب السلطان

منهم أرفع مائة عالم فما ظنك بمن لم يصححه وبمن لم يكن في طبقتهم؟ ولا تعني أن الدولة لم يكن لها يد في نشر المعارف وتشجيع رجالها بل أنها ما قصرت في هذا الصدد حتى ليسمونها دولة العلم وذلك لما أثلته من المآثر الحليّة والمناقب الحميدة كبناء المدارس وترتيب المدرّسين بها في كافة أنحاء المغرب وبناء الخزائن العلمية الملحقة بالقرويين وتحجير الكتب العديدة عليها. وإن الفخر والإعجاب ليلعبان أحدهما الأقصى ولا يفيان بحق المدرّسين العديمتي النظر بهاس، مدرسة العطارين التي بناها السلطان أبو سعيد ابن المصنور والمدرسة العمانية التي بناها السلطان أبو عمار بن أبي الحسن فضلاً عن غيرهما في غير فاس.

وبالاختصار فإن في هذا العهد كان الشعب مندفعاً بنفسه إلى الجري في ميدان التحصيل، والدولة لا تألو جهداً في تشجيع الشعب بما يجعله عظيم الرغبة في هذا السبيل.

ولا بد أن نشير إلى أن أكثر العلوم انتشاراً في هذا العهد وأخصها بالعاية هو علم الفقه والأحكام، فإنه قد توسع فيه توسعاً عظيماً لم يعهد فيما مضى من العصور ولا فيما أتى بعد. ثم علوم اللغة العربية والأدب، فأشهر نحاة المغرب وهو ابن آجروم وأشهر شعراء المغرب هو مالك ابن المرحل، كلاهما من رجال هذا العهد على أن العلوم الكونية وخصوصاً الرياضيات قد كانت في هذا العصر أيضاً منتشرة جداً، وأشهر رياضي مغربي وهو أحمد بن إسماعيل العددي كان من علماء هذا العصر.

من المدارس المرينية بفاس



يرى عن اليمين منظر من مدرسة العطارين
وعن اليسار منظر من المدرسة العنانية



المدرسة العنانية من الداخل

وأما عن الحياة الاجتماعية وأحوال المعاش فقد كان المغرب يمرح في بحوحة من الحفص والدعة لتوفر أسباب العيش والمواد الحيوية حتى أنها في بعض الأوقات كادت تكون بغير ثمن. وكانت مظاهر الحضارة والترف قد عمت البادية بآلة الحضارة. ولكن مع حفظ التحمس وغلة الوقار. وإنا لنستدل بحادثة واحدة على أن ما كان شائعاً في بلاد أخرى كالأندلس من الاستهتار وقلة التصون لم يكن ممكن الوقوع في المغرب، وتلك هي حادثة سمير غرناطة الذي سكر فحده قاضي فاس أبو الحسن الصغير حد الشراب ولم يراع فيه إلا ولا دمة. ولما شكّا إلى الوردور ورام هذا أن ينتقم له من القاضي عصب السلطان لذلك وانتقم من الوزير.

وهكذا كانت أحكام القصاه منطبقة على الشريعة الإسلامية ولا يمكن أن تعقب من سلطان ولا وزير. ناهيك بمن كان يتولى القضاء في هذا العهد من فطاحل العلماء الذين لا يرضى أحد منهم أن يكون آلة في يد غيره على أن السلاطين أنفسهم كانوا في الغالب من رجال العدل والإصاف. وما عُرف التسلط في هذه الدولة إلا عن بعض الوزراء المستبدين وآخر سلاطينها عبد الحق الذي ثارت به العامة وقصت على دولته.

وفي هذا العهد بلغ استعرااب المغرب وقبائله إلى الحد الذي لم يبلغه قط، وكان عمل الدولة كله في دائرة العروبة، واشتدت وصلة المغرب شعباً ودولة ببلاد الشرق العربي بالرحلات والمكاتبات وتبادل الهدايا بين الملوك، وبلغ الأمر إلى أن شرفاء مكة بايعوا

سلطان المغرب، ويشير ابن حلدون إلى شيء من ذلك فيقول: «وأما لهذا العهد وهو آخر المائة الثامنة فقد انقلبت أحوال المغرب الذي حصر شاهدهوه وتبدلت بالحملة، واعتاض من أحيال البربر أهله على القدم بمن طراً فيه من لدن المائة الخامسة من أحيال العرب بما كثروهم وغلبوهم وانتزعوا منهم عامة الأوطان وشاركوهم فيما بقي من البلدان.

على أنه يذكر بعد ذلك انتفاص عمران البلاد وذهاب الحضارة بسبب الطاعون الحارث الذي عم الأرض شرقاً وغرباً في منتصف القرن الثامن وكان من نتائج فتور العرائم وضعف الهمم في البلاد الإسلامية جمعاء.

المغرب والدفاع عن الأندلس

المغرب هو الذي فتح الأندلس، والمغرب هو الذي بقي حاملاً راية الدفاع عنها مدى أربعة قرون. ولكن منذ وقعة العقاب إلى أن حار المصور المريني حوازه الأول للجهاد في الأندلس وقع تكلف كبير من الأسباب على المسلمين فسقطت قرطبة وإشبيلية وما صاهاهما من القواعد الكبرى، وانحصرت مملكة الإسلام في رقعة صيقة جداً هي غرناطة وما ولاها، على أنه بعد أن قامت دولة بني مرين بمهمة الجهاد في الأندلس لم تقع وقعة فاصلة بين الإسلام والصراية من طرار وقعة الرلاقة والأرك ولم تسرد قاعدة من قواعد الإسلام في تلك الديار.

وكد سو مرين لا يحشدون كل قواهم للعمل في الأندلس لأنهم كانوا مهتمين أكثر بالعمل في إفريقيا الشمالية، فضلاً عن أن بني الأحمر ملوك غرناطة ويقال لهم أيضاً بنو نصر كانوا لا يخلصون النية لبني مرين خوفاً منهم على ملكهم. فكانوا كلما نزعوا في بلاد العدو وانتصروا عليه يدسون لهم الدسائس في المغرب ويحرصون عليهم أعداءهم من ملوك بني زياد ويهادنون العدو أو يحالمنونه عليهم وربما قطعوا عليهم خط الرحلة وحشروا أسطولهم مع أسطول العدو في بحر الزقاق ليقطعوا عنهم الميرة والمدد، ويعوقوهم عن العود إلى بلادهم، وقد مرت الإشارة إلى شيء من ذلك في الكلام على حركات المنصور المريني.

ومع ذلك فإن بني مرين كانوا من سعة الصدر والحلم بحيث لم ينقطعوا عن العمل ولم تفسد بياتهم في الجهاد بل رتبوا على أنفسهم مباركة العدو مراوحتة بالقتال في قعر داره. وكانت لهم قوات مرابطة في بحر العدو لا تفتأ تكف عاديته عن المسلمين. وكانت مشيخة المجاهدين من الرتب العالية والمحترمة جداً لا يولاها إلا الأنطال الأجداد والأشخاص المحترمون وربما كانوا من الأسرة المالكة نفسها.

وعلى كل حال فإن أهم الحركات التي وقعت بعد حروب المنصور المريني المتقدمة الذكر هي حركة ابنه يوسف الناصر لما نقض شانحة الصلح الذي كان عقده مع المنصور، وكانت وقعة مصورة في البر والبحر تظاهر على أثرها ابن الأحمر وشانجة لمع

يوسف لناصر من الحوار مره أخرى إلى الأندلس وسقطت بسبب ذلك طريف في يد العدو سنة 691 وكان ابن الأحمر طامعاً في الاستئثار بها لنفسه فلم يمكنه حليفه من ذلك. وقد بقيت من هذا الوقت وهي شجي في حلق المسلمين.

ولما راجع بن الأحمر بصبرته ندم على ما فعل وتقدم بالرغبة في الصلح إلى يوسف الناصر فصالحه وأمده بحيش لمحاصرة طريف لكنه لم يحصل منها على طائل. ثم كان أن بارلها أبو الحسن المريني بعد ذلك فهرم شر هزيمة واستولى العدو بعد على الجزيرة الخضراء كما تقدم، إما هذه في إحدى الفرص الثمينة على حين شوب سنة بأرض العدو، أطبقت كلمة ابن الأحمر والسلطان أبي فارس عبد العزيز بن أبي الحسن المريني فبارلها المسلمون وصيقوا عليها الحصار حتى ستسلمت وعادت إلى حظيرة الإسلام في سنة 770 وكم من فرصة مثلها ضيعها المسلمون بتحاصمهم وتحاذلهم، ولولا ذلك لما جرى عليهم ما جرى من الفهر والعلنة.

ومن أغرب الوقائع التي جرت على يدي المجاهدين من بني مرين وقعة مرج غرناطة. وذلك أن العدو خرج إلى بلاد الإسلام في أكمل أهبة وأعظم استعداد وأصرفت كلمة ملوكه ورؤسائه على تدويح مملكة غرناطة وطرد المسلمين عن أرض الجزيرة. ولما نزلوا بمرج غرناطة دهم المسلمين منهم ما لا قبل لهم به. وبينا الأمر على أشده عمد شيخ الغرارة من بني مرين وهو عثمان بن أبي العلاء إلى جماعة حنده واحتار منهم نحو المائتين واهتبل الفرصة في العدو

وتقدم بهم نحو جيشه فظن النصارى أنهم أبوا لمفاوضة أو إبلاغ رسالة حتى إذا سامتوا موقف وصى الملك وهو بطره من سانجة وأخيه حوان صمموا نحوهما حتى خالطوهما في مراكزهما فصرعهما في حملة من الحاشية وانهرم ذلك الجمع من حينه وولوا الأديار واعترصهم من ورائهم مسرب الماء للشرب على نهر شليل فتطرحوا فيها وهلك أكثرهم واكتسحت أموالهم وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون ثلاثة أيام. وخرج أهل غرناطة لجمع الأموال وأخذ الأسرى فاستولوا على شيء كثير من ذلك. وكان في حملة الأسرى امرأة الوصي الهالك وأولاده فيقال أنها بذلت في نفسها مديّة طريف وحبل طارق وثمانية عشر حصاً فلم يقبل المسلمون. وكانت هذه الواقعة في 5 جمادى لأولى سنة 719.

وعثمان بن أبي العلاء هذا من الشخصيات البارزة في الجهاد وأحفاد الملوك من بني مريس، ومكانه من الصرامة وشدة البأس لا يدانيه فيه أحد. توفي سنة 730 عن 88 سنة أفقها ما بين روحة في سبيل الله وغدوة حتى استوفى في المشهور 732 غروة رحمه الله.

وقد علمت إن هذا كان في أول الأمر والدولة في عنفوان شبابها والمغرب لا زال محتفظاً بالكثير من قوته، ولكن لما حال الحال وتراجع أمر المغرب في حين أن أمر العدو كان إلى تقدم وكلمتهم إلى جمع لم يبق في طوق المغرب أن يقوم بمهمته التقليدية من الدفاع عن أرض الجريرة. كيف وقد شورك في أرضه إذ نزل البرتغال بمدينة سبتة عام 818 فلم يتأت إخراجه منها. وكان قد

أمر أمر هذه الدولة فعزت بعد الدلة وكثرت بعد القلة، ثم في سنة 869 استولى على مدينة طنجة بعد أن دُفع عنها شدة ولكن من غير حدودى. وهكذا كانت بواذر الفاححة تنذر بالخطر والأمر لله.

— أسئلة —

- (1) من هم بنو مريـن؟
- (2) أين كانت مواطن زناتة؟
- (3) كيف كان دخول بني مريـن إلى المغرب؟
- (4) من كان أميرهم حينذاك وما هي صفاته؟
- (5) من الذي قضى منهم على دولة الموحدين وفي أي سنة؟
- (6) متى تولى يعقوب المنصور الملك؟
- (7) ما هي أوصافه ومآثره؟
- (8) كم حاز إلى الأندلس برسم الجهاد وما كانت نتيجة ذلك؟
- (9) متى توفي؟
- (10) ما هي أوصاف أبي الحسن المريـني وبماذا يُعرف؟
- (11) ما هو أول فتح له؟
- (12) في أي معركة أخرى انتصر على العدو؟
- (13) متى فتح تلمسان؟
- (14) متى استولى على تونس؟
- (15) لماذا لم يستدفع له ملك إفريقيا؟

(16) ما الذي أرعجه عن إفريقيا إلى المغرب وماذا وقع له أثناء رجوعه؟

(17) ما هي مآثره؟

(18) كيف كنت علاقته بممالك الشرق؟

(19) ما سنة وفاته؟

(20) متى تولى أبو عنان وما هي صفاته؟

(21) لماذا أعاد فتح تلمسان وتونس؟

(22) كيف كنت وفاته وفي أي سنة؟

(23) ما هي مآثره؟

(24) ماذا طرأ على الدولة المرينية بعد وفاة أبي عنان وما السبب في ذلك؟

(25) كيف كانت حالة الاجتماع بالمغرب في عهد بني مرين؟

(26) ما هي حال المعارف العمومية في هذا العهد؟

(27) كيف كانت العلاقات بين المغرب والشرق؟

(28) ما الذي طرأ على البلاد الإسلامية في هذا العهد فانتقص عمرانها وكان مساً في ضعف حالتها المعنوية؟

(29) ماذا كان عمل بني مرين في الأندلس؟

(30) كيف كن موقف بني الأحمر بإزائهم؟

(31) من هو عثمان بن أبي العلاء؟

(32) ما هي أهم وقائعه بالأندلس وكم عدد غزواته؟

الدولة الوطاسية

بنو وطاس فرقة من بني مزين دخلوا المغرب معهم وبزلوا بلاد الريف وكانوا يسمون إلى الرياسة فتولوا انورارة في الدولة المرينية وحمد أثرهم فيها. ثم أن السلطان عبد الحق المريسي آخر بني مزين سطا بهم سطوة برمكية لما أسس منهم من الاستناد عليه، فقصر منهم على الوريث يحيى وأحويه أبي بكر وأبي شامة وقتلهم في جملة من قرابتهم وأفلت منه محمد الشيخ أخو الوريث يحيى كن حرج للصيد فلما اتصل به الخبر فرّ إلى منحاة حيث كان من قدر الله أنه سيرث دولة بني مزين ويؤسس على أنقاضها دولة بني وطاس.

واستقر محمد الشيخ ببلاد الهبط فواتته الفرصة في أصيلا فامتلكها. وأمر أمره فتشوقت إليه الأعيان من أهل فاس ورؤساء دولة السلطان عبد الحق المحلوع. ولما قتل السلطان المذكور وبويع بفاس للشريف أبي عبد الله الحفيد العمراني كما سبق القول شمر محمد الشيخ عن ساعديه وعقد العزم على استخلاص ملك المغرب لنفسه فقصد فاس واسولى عليها في رمضان 876 وخرج الحفيد عنها فوجه هو وأولاده إلى تونس، وبذلك انتقلت الدولة إلى بني وطاس.

وكان محمد الشيخ شجاعاً مقداماً وسياسياً حارماً غير أن ما كان يواجهه من المشاكل حير ولايته لم يكن مما تنفع فيه شجاعة ولا سياسة، فمهد الفتن الداخلية التي كان بحرّها طامياً بالمغرب وحسبك أن ثورة عمرو السيف بالجنوب دامت نحو العشرين عاماً. ومنها نزول البرتغال بشواطئ المغرب واستيلائه على أهم ثغوره كسنة وطنجة، وهاتان من أيام لمربنيين، وأصيلاً وقد استولى عليها بعد خروج محمد الشيخ منها وقصده إلى فاس، والبريجة وهي حصن بمحل ثعر الحديد الذي كانوا هم السابن له بعد إلى غير ذلك. وقد كانت بعوثهم وسراياهم تبيت في أطراف البلاد المحاورة وتعيث في الأرض فساداً، ولا يشك أحد أنها كانت تستعد للانسياح في داخل المغرب وبسط سلطانها على كامل البلاد.

ومنها سقوط مملكة عرطاة في يد الإسبان وانهيار آخر معقل للدولة الإسلامية في بلاد الأندلس وقدم أهلها مع سلطانهم ابن الأحمر مغربيين إلى المغرب سنة 897 وقد كانت هذه الواقعة وحدها كافية في بلبلة الأفكار وإثارة الاضطرابات فضلاً عما تحدثه في الأمة هي والوقائع قبلها من ضعف الهمة وانحلال العزيمة.

ومع ذلك فقد تألفت في هذه الفترة ابرهية من تاريخ المغرب جماعات من ذوي الغيرة الإسلامية والحمية الوطنية جعلت وكدها الدفاع عن حقيقة البلاد وإيقاف العدو المغير عند حذّه. وقد أبليت في ذلك إلى جانب السلطان محمد الشيخ الوطاسي بلاء حساً.

ومن هذه جماعة الأشراف العلميين، ببي راشد، الذين سوا مدينة

شفشاو سنة 876 بقصد تحصين المسلمين من نصارى ستة الدين كانوا كثيراً ما يتناولون على أهل تلك الجهات.

ومنها جماعة الأندلسيين الذين عمروا تطوان بعد خرابها وكانوا قدموا على السلطان محمد الشيخ فأزلهم بها وولى عليهم كبيرهم أبا الحسن المظري، وهو رجل شجاع من كبار حدة ابن الأحمر فما فتى يشن الغارات على نصارى سبتة وبلاد الهبط.

ومنها جماعة أهل رمور وكاسوا في حرب دائمة مع نصارى الجديدة إلى غير ذلك. ولكن كل هذه الجهود إما كانت تحفف وطأة العدو على البلاد ولم تزرحه عن مركز من المراكز التي احتلها.

ومات السلطان محمد الشيخ في سنة 910 فولى ولده محمد البرتغالي، عرف بذلك لأنه كان وقع في أسر البرتغال لما أخذوا ثغر أصيلا وبقي عندهم نحو 7 سنين ثم أفتكه والده. وفي مبدأ ولايته استولى لبرتغال على ثغر العرائش ثم على ثغر آسفى وعظمت بذلك الحاجة فتجهز السلطان للرحف على ثغر أصيلا الذي كان أسيراً فيه عند البرتغال فاقتحمه عليهم سنة 914 ثم جاءهم لمدد من طنجة وجبل طارق فأحلاها المسلمون. وقد بذل هذا السلطان جهداً كبيراً في جهاد العدو وترديد العرو إليه والإحلاب عليه حتى شغل بذلك عن البلاد المراكشية ونواحيها فكان ذلك سبباً لظهور الدولة السعدية بها سنة 915.

واستمر الحال على ما ذكر من امتلاك العدو لسواحل لمغرب وضعف معوية الشعب إلى أن انقرضت الدولة الوطاسية سنة 961 وخلفتها الدولة السعدية التي حددت من قوة المغرب ما بعث

الاطمئنان إلى النفس.

وفي الحقيقة أن هذه الدولة إنما كانت دنياً طويلاً للدولة المرينية يجري عليها ما يحري على أعقاب الدول من مصاحبة المشل ومعاونة العثار وبذلك فإن المغرب لم يرفع رأساً من الانتكاس الذي أصابه في أواخر أيام المرينيين إلى أن قامت دولة السعديين وإن كان هذا لا يحري مع المثل الشعبي الذي نحسب أن قائله كان من خصوم السعديين وهو: (من بعد بني مرين وسي وطاس ما بقي ناس).

واعلم أنه في هذا العصر بدأ انحطاط المغرب وتبدلت حاله بما لم يكن عليه من قبل. فمن ذلك أن الأجانب احتلوا أرضه واستباحوا حماه ولم يكونوا يطمعون في ذلك قبل إذ كان هو الذي يهاجمهم في بلادهم ويحاربهم في عقر دارهم. ثم أن بعض المدن التي أخذت في هذا العصر لم يقع استردادها بعد ولو في عهد كبار السلاطين الذين تولوا من بعد. وبذلك تترك الفرق بين هذه الدول والدول المتقدمة.

ومن ذلك أن المملكة المغربية انكمشت وانحصرت في هذه الرقعة الصغيرة بعد أن كانت تشمل لحرائر وتونس والأندلس في كثير من الأحيان، وفي عهد الدول الصغيرة كالأدارسة ومغراوة كانت تحتصن تلمسان وناجتها على الأقل.

ومن ذلك قوة الاعتقاد في الصالحين وتصرفهم الروحي حتى أدى الحال إلى أن حلع الناس عليهم حلة الولاء للعدو وهم لا يشعرون. فابن سليمان الحرولي لم أخرجه والي آسفى دعا عليها - لا عليه - فأخذها البصارى، وعيره كان يولي ويعزل من يشاء، وآخر يريد

استمرار الفتنة بين المسلمين فيكر ما أراد. وهذه أمور لا يصح سببها إلى عباد الله الصالحين وإنما هي من نتائج حرب الأعصاب التي كان يقوم بها المغرضون، وصادف الحال أن عموم الشعب كان في ذلك الوقت متزلزل العقيدة منحل الإرادة بما شاهد من انهيار ممسكة الأندلس ومعالة العدو له فلجأ إلى التعديل بالأمازي والتعديل بالخرافات، وما دام المسلمون لم ينهضوا نهض مسلمهم الصالح في إخلاص التوحيد لله عزّ وجلّ والأخذ بأحكام الشريعة كما جاءت من غير تأويل فإنهم لا تقوم لهم قائمة. وقد قال الإمام مالك رحمه الله: «لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح عليه أولها».

— أسئلة —

- (1) ما هي أولية بني وطاس؟
- (2) كيف تأسست دولتهم ومتى؟
- (3) ما هي صفات محمد الشيخ الوطاسي؟
- (4) ما هي المشاكل التي واجهته حين توليته؟
- (5) من كان يتعاون معه على مقاومة العدو لمغير؟
- (6) في أي سنة توفي ومن الذي تولى بعده؟
- (7) ما هي أهم حملة قام بها محمد البرتعاللي؟
- (8) لماذا لم تنجح الدولة الوطاسية في مهمتها؟
- (9) ما الذي طرأ على المغرب في هذا العصر؟

الدولة السعدية

هذه ثاني دولة شريفة قامت في المغرب بعد الأدارسة وهم أبناء عم الأشراف العلويين ملوكنا الحاليين، ونسبتهم التي اشتهروا بها إنما هي حري على قول خصومهم: أنهم من بني سعد بن بكر بن هوارن دفع لهم عن النسب الشريف، وقد أول العامة ذلك على معنى السعد والحظ والنصيب فكان ذلك سبب سيرورة هذا النسب بين الناس.

وفي الواقع أن المغرب سعد في أيامهم بما بعد عهده به منذ أيام بني مريين الراهرة.

وفي نفس الأمر كان المعارضة أنفسهم هم الذين سعوا في تنصيب هذه الدولة، فإنه لما اشتغل الوطاسيون بمحاربة العدو المغير في شمال المغرب وثلغور الهبط بقيت ناحية الجنوب وثلغور السوس عورة من السهل على العدو اكتساحها في أول فرصة.

فاجتمع الناس على أبي عبد الله محمد القائم وهو أول أمير من هذه الدولة، وكان رجلاً شريفاً على جانب من العلم والدين ومقرّه بدرعة، فولّوه عليهم وترأس حركة الجهاد والدفاع عن حومة الوطن في حروب المغرب فكان ميمون القبية أتاح الله له من النصر على

الأعداء ما فيه للنموس شفاء.

وكان قيامه سنة 915 وتوفي سنة 923 فتولى بعده ابنه أبو العباس أحمد الأعرح وقد واصل خطة أبيه في مقاومة البرتغاليين حتى طهر منهم سواحل السوس وطارت بذلك شهرته في البلاد فدخلت مراكش في طاعته سنة 930 وأخلى النصارى ثغر آسفى وأرمرور خوفاً من القتل والسبي، كما أخلوا أصيلاً سبب ضغط محاهدي الهبط عليها، وبالطع فقد كان لهذه الأعمال أثر سيئ في نفوس الوطاسيين فقاوموا ولكر بدون حدود.

ثم إن أبا العباس هذا كان له أخ اسمه محمد الشيخ وهو وريره وعصده الأيمن في جميع أعماله، وحدثت بينهما بكرة أوجت الانقطاع ثم تعلب محمد الشيخ على أخيه أبي العباس فقبض عليه وأودعه لسجن سنة 946 وتولى هو باسم:

محمد المهدي

ولكر لقب (الشيخ) كان غالباً عليه وفتح حصر فونتي بعد ولايته بسنة وكان بيد البرتغاليين نحو 72 سنة وبني بقربه حصن أكادير، وكان له في احتطاطه من الوجهة الحربية رأي مصيب. ثم أعاد فتح أسفى وزمور وكان النصارى قد عادوا إليهما. وبعد ذلك وحه نظره إلى شمال لمغرب، فما عثم أن استولى على مكناس ثم فاس سنة 956 وتقبض على الوطاسيين أجمع ولكنه لم يقبض على آخرهم ويصف له ملك المغرب إلا في سنة 961.

وكان متصايقاً من الأتراك الذين حلمو دولة بني ريان في القطر الحرائري معتقداً أن المغرب أولى بالإشراف على ذلك القطر فهذه كان على خلاف دائم معهم. وتقدم فاستولى على تلمسان وناحياتها إلى وادي شاف سنة 957 إلا أنه لم يستقر فيها كثيراً.

وبالحملة فقد كانت همة هذا السلطان عالية ومساعيه ناححة في الجملة، ولولا ما كان فيه من العرور الذي أطاح برأسه لأتى منه للمغرب خير كثير.

ومما يُنتقد عليه أنه كان ذا بطش شديد وحلم قليل فقتل ثلاثة من العلماء: الونشريسي، والزقاق، وحررور بتهمة ممالأة الوطاسيين عليه وكان في وسعه أن يشملهم بعفو فلا يصروه بشيء، وبطش بأرباب الروايا بطشة كبرى لما كان يحاف من قيامهم عليه، وهؤلاء ربما يلتمس له فيهم العذر بما يظن من مدحلة بعضهم لأتراك الجزائر.

ولكنه هو الذي وطد ملك السعديين وهذب وأدخل عليه رونق الحصارا بعدما كان حافياً بادياً، وحبى الصرائب للاستعانة بها على أمور الملك وتقوية الدولة، وسوّى فيها بين الشريف والمشروف ولم يحاش منها أحداً.

وكان على جانب عظيم من الفقه والعلم وله بصر بالأدب وحفظ الأشعار يتمثل بها في كلامه.

ومن كلماته الحكيمة «يبغي للملك أن يكون طويل الأمل فإن طول الأمل وإن كان لا يحسن من غيره فهو منه صالح لأن الرعية

تصلح بطول أمله».

وأنحب أولاداً عدة منهم محمد الحرّان وكان من النحدة والشجاعة بمكان، قتل في موقعة تميمسان.

ومنهم عبد الله الغالب وعبد الملك المعتصم وأحمد المصور المتولّون بعده على هذا الترتيب وعبد القادر وكن وريراً له.

ومات مقتولاً بتدبير الأتراك في 29 حجة 964 أرسل إليه السلطان سليمان القانوني من الأستانة طائفة من رجاله فتلطفوا في الاتصال به حتى تمكنوا من اغتياله، وذلك لما كن يبلمه عنه من الاستطالة في حابه ويتخوف من انترائه على المغرب الأوسط.

عبد الله الغالب

كان ملكاً صالحاً وسلطاناً عادلاً ذا سياسة وتأن في الأمور صلحت به الرعاية وانتعش النسر. ومن مآثره جامع الأشراف بحومة المواسين من مراكش والسقاية المتصلة به والمارستان الذي أوقف عليه أوقافاً عظيمة وانتفع به كثير من الخلق.

وفي سنة 969 حاصر مدينة الحديدة التي بناها البرتغال بمكان حصص البريجة وضيق عليها الخناق وكاد يفتحها لولا ما عرص له من خوف مهاجمة الأتراك له وكان أسطولهم يتردد في بحر الزقاق، فاضطر إلى مهادنة البرتغال بل وإلى عدم معارضة الإسبان في النزول بمرسى باديس وكانت بيد الأتراك لتقطع بذلك مادتهم عن المغرب ولا يحدوا سبيلاً إليه.

على أنهم كانوا قد رحفوا إلى فاس برأ من نلمسان بعد سنة من ولاية الغالب في حيش كثيف بقيادة حسن بن خير الدين باشا فهرمهم الغالب ورجعوا مشرّدين في الحال إلى أن بلغوا إلى باديس وكانت بيدهم يومئذ.

فأنت ترى أن الظروف السياسية سم تكرر تساعد المغرب على النهوض واسترجاع مكانته بين الدول الكبرى، فالمرتعال والإسمان كانا في عنفوان قوتهما وكانت لهما عمارة بحرية هائلة، بينما كان المغرب منهوكاً بالمتن والحروب وليس له قوة بحرية.

ولما ظهرت تركيا في الشمال الإفريقي كانت تطمع في الاستيلاء على المغرب فلم يكن بدّ من مقاومتها سياسياً وحربياً، وهذه كانت حطة الغالب إلى أن مات في 28 رمضان 981.

عبد الملك المعتصم

لما توفي الغالب كان أخواه أبو مروان عبد الملك وأبو العباس أحمد ملتجئين بالجزائر خوفاً على أنفسهم منه، لأن لملك عقيم كما يقولون، فجلس على العرش ابنه محمد المتوكل فعزّ على الأخوين انتزاع تراث أبيهما مهما ونهضا للدفاع عن حقهما فساهم أبو مروان إلى الأستانة ومثل بين يدي السلطان سليم الثاني وطلب منه أن يمدّه بحيش يدخل معه المغرب فيتزع المنك من ابن أخيه فلم يحبه إلى مرعوبه لاشغاله بأمر تونس التي كان الإسبان قد استولوا عليها في ذلك الحين، فبقي هناك حتى جهر السلطان سليم

حملة سنان باشا التي اترعت تونس من أيدي الإنسان فصاحبها أبو مروان وأبلى فيها بلاءً حسناً، ثم كان أول من أبلغ الإشارة بالفتح إلى السلطان فحازاه على ذلك بأن أمر جيش الحرائر أن يعينه على مراده.

وهكذا تقدم إلى فاس فحرح إليه ابن أخيه بحيش سرعان ما انصم إلى أبي مروان وهرب المتوكل إلى مسحاته ودخل عمه إلى فاس وابعه الناس سنة 983 فصار ملك المغرب ولقب بالمعتصم. وكانت تلك المدة التي قضها بعيداً عن وطنه بالجزائر وجولته في الشرق ومشاركته في فتح تونس قد عملت عملها في تكوينه وتهيته للمهمة العظمى التي ألقت إليه بالمقابليد الآن، فاضطلع بها أنم اصطلاح.

ومن نتائج ذلك أنه ضغط أمر الجيش ونظمه على طريقة الحيش التركي وكان هو نفسه يترى بري الترك ويحري مجراهم في كثير من شؤونه.

وكان ابن أخيه المتوكل لما شرد عن فاس قصد مراكش وجعل يحول في بلاد سوس وينقل في قائلها وأحيائها إلى أن التفت حوله عصاة قوية فقادهم إلى مراكش ودارت رحى الحرب بينه وبين عمه فهزم وفر إلى حل درن ومنه إلى باديس فأقام بها مدة ثم ذهب إلى سبتة فطبعة حيث لقي سبستيان ملك البرتغال واستنجد به على عمه، فاعسمها هذا فرصة للدخل في شؤون المغرب خصوصاً وقد كان ما بينه وبين المعتصم حرباً لا تنهي حتى استرد المعتصم منه

شعر العراتش وأخذ هو من حديد ثعر أصيلاً، فهصر مع المتوكل بجيش كثيف أقل ما قيل في عدده 80,000 رجل، وتقدم يريد القصر الكبير.

فلما علم المعتصم بزحف هذا الجيش أخذ أهبطه واستعد لملاقاته لكنه صار يطاول العدو مكيدة منه لكي يتوغل في داخل البلاد حتى انتهى إلى وادي المخارن بقرب القصر الكبير وتركهم السلطان إلى أن عمروا حسر النهر ورلو من العدو الدنبا، فأمر بالجسر أن يهدم فهدم، وكان النهر لا مشرع له.

ثم التقى الجمعان يوم الإثنين منسلخ جمادى الأولى 986 فدارت بينهما معركة هائلة انتصر فيها المسلمون انتصاراً عظيماً وأتى القتل على غالب جيش العدو بحيث لم يعلت منه إلا القليل ومهم الملت سبستيان والمتوكل المستنجد به.

وهذا سلح وملى حله تبناً، فلذلك عرف فيما بعد بالسلوح، كما مات في هذا اليوم عبد الملك المعتصم ولكن ميتة طبيعية، حيث أنه كان مريضاً وحصر في الموقعة وهو محمول في محفة، فكان أخوه وخليفته أهر العباس أحمد يُدّر الحرب ويتردد فيما بين رؤساء الجند.

ولما مات كتم موته عن الناس لئلا يفت في أعضادهم حتى أتاح الله لهم الظفر بالعدو كما يريدون.

وكنت هذه الواقعة من الوقائع الفاصلة في تاريخ المغرب والبرتغال، إذ بها استحال مد هذه الدولة إلى حزر، وأيقنت باستحالة

احتياح المغرب الذي كانت ترى أنه أصبح منها على طرف الثمام.

المنصور الذهبي

هو أبو العباس أحمد المنصور واسطة عقد الدولة السعدية وأعظم سلاطينها على الإطلاق. بويع بعد وفاة أخيه المعتصم إثر وقعة وادي المحارن، وكان شجاعاً مقدماً حسر التدبير عظيم السياسة، فدر الدولة وساس الرعية بحكمة وفضة لا مريد عليهما حتى عم العدل واستنت لأمر واستبحر العمران وانتشرت المعارف وبلغ المغرب في عهده درجة رفيعة من الرقي والعظمة.

فمر حسر سيرته وكمال سياسته أنه أنشأ مجلساً شورياً أطلق عليه اسم (الديوان) فكان هذا المجلس يعتمد في كل أربعاء من الأسبوع، وتحتمع فيه وحوه الدولة وأعيان الأمة فيتبادلون الرأي في المسائل السياسية والمصالح العامة، فلا يقطع هو في أمر حتى يأخذ برأيهم فيه.

حول المنصور لأمته بإنشائه لهذا المجلس حق التدخل في شؤون الدولة، ولنظر في سير السياسة الداخلية والخارجية، وكان أعظم شاهد على ديموقراطية السلطان القوي الذي لم يشأ أن يجعل حكومته ديكتاتورية مستبدة، لأنه نظر إلى الآية الكريمة ﴿وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ﴾ [الشورى: الآية 38] فرأى أن التطرف عنها إجحاف بحقوق المسلمين الذين ولاه الله أمرهم وجعل إليه النظر في مصالحهم.



المنصور الذهبي

ولعمري أن أمر المغرب لا يستقيم إلا على هذا الحكم الشورى الرشيد، لأن ما طبع الله عليه أهله من حرية الفكر وإباء الضيم يأبى لهم أن يسلسوا القياد للحاكم المطلق ولو كان عادلاً. وهذا هو السر في كثرة الثورات والحروب على السلطان غالباً في تاريخ المغرب.

ومن محمود سعيه ومشكور فعله في رفع شأن المغرب وإعادة مجده السابق أنه بعد أن رأى فائدة الحش النطامي فيما اكتسبه من النصر الهاهر بوقعة وادي المخازن وحثه نظره إلى إصلاح أمر الحش والاعتناء بشؤون الحربية، فأفرع من المدافع وجهز من آلات القتال شيئاً عظيماً وأكثر من اتحاد الجنود وعدد الضباط، وجرى في تنظيم العسكرية على نهج بديع سلك به مسلك التوفيق بين التنظيم العربي والتنظيم المستعجم الذي جح إليه أخوه المعنصم لما رآه بتركيا وأعجبه وكان الناس يكرهونه وقوفاً مع العوائد.

فلما تم للمنصور ما أراد من إichاد جيش قوي منظم تعلقته همته بالفتح وتوسيع مملكة المغرب، فطمح إلى تملك توات وتيكورارين من بلاد الصحراء وكانت أرض فوضى قد انفصل أهلها عن حكم أي أمير وطاعة كل سلطان، فرأى هو أن يتقوى بهم ويستعين بتجيد الحدود واتخاذ أنصار للدولة مهم، فبعث إليها جيشاً قوياً ففتحها سنة 990 وذاق صيت لمنصور في أقطار السودان فأرسل إليه ملك سرنو بهدية ودخل في طاعته.

مملكة السعديين



هذه الخريطة تمثل إلى أي حد بلغت
سلطة المغرب في عهد الملوك السعديين

ولقد كان صدى هذا الانتصار قوياً عند مجاهدي الهبط فقويت نفوسهم وأوقعوا بالعدو وقائع هائلة كان من نتيجتها أن أحلى ثعر أصيلاً سنة 996 فعاد إلى حصن الوطن.

ثم سمت نفس المنصور إلى الاستيلاء على جميع بلاد السودان ولكنه تأخر عن ذلك حتى شاور في أمره أهل الحل والعقد والأعيان والرؤساء، فوافقوه ورضيت الأمة بذلك، وإدراك قوي عزمه فاشتغل بتحجير آلة الحرب ومعدات القتال وما يحتاج إليه الجيش من المؤن والمهمات في سمره، وبعث عسكرياً جراراً فمضى يقطع الفيافي والقفار ثم أمده بآخر حتى تم فتح السودان سنة 1000.

وهكذا امتد نفوذ المغرب في الجنوب إلى أبعد حد وصل إليه في أي عهد آخر.

وكانت هذه البلاد الشاسعة تحتوي على منابع الثروة الطائلة وكور العبي الوافر حتى لقد كان الذهب يحبى إلى المنصور منها بالأحمال.

ومن تنشيطه للعلم وتشجيعه للعلماء أنه كان يأمرهم بالتأليف ويبدل لهم المكافآت السنوية على ذلك حتى قال العلامة المنحور: «ما عهدنا بدل المئات إلا في أيام الأشراف وما عهدنا بذل الألوف إلا في أيام المنصور» على أن المنصور نفسه كان عالماً بحريراً وأديباً أريحياً ألف كتاباً جليلاً في السياسة وله مقطعات في الشعر تنم عن رقة طبعه، بل هو أشعر ملوك المغرب قاطبة.

أما آثار المنصور في الفن والعمارة فقد يضيف عنها التعبير، ومن أعظمها قصر البديع الذي بناه في حضرة مراكش وصرف عليه أموالاً

طائفة وستعرق ساؤه من سنة 986 إلى سنة 1002 حتى جاء قصراً يكل عن وصفه اللسان.

ومنها الحصون الأربعة الهائلة التي أحدها بباب عحيسة والثاني بباب المتوح من فاس والثالث والرابع بالعرائش، وكلها على جنب من المتانة والقوة بحيث لا يعرف قدرها إلا من وقف عليها.

ومنها مصانع السكر العديدة لتي أسسها بمراكش وسوس، وقد كثر وجود هذه المادة الحيوية بالمغرب في أيامه حتى كان يصدرها للخارج، وكانت إيطاليا تبادله منها بالرخام.

وباجملة فإن هذا السلطان كان من أعاضم سلاطين المغرب وعهده مما توقرت فيه أسباب الراحة وزها العمران وتقدمت لمعارف وفاصت الخيرات فيضاناً، وكان بدار سكة كل يوم 1,400 مطرقة تضرب الديار الذهبي اوهاج، وذلك عدا المصوغات والحلي، ولذلك دعي المنصور «الذهبي» وهو غاية ما يقال في وصف عصره الراهر.

إلا أنه ويا للأسف ما كد يغمص عبيه ويلتحق بربه في 16 ربيع الأول 1012 حتى انتثر سلك هذا الظلم وعاد المغرب إلى عهد الثورات والفوضى والظلام، د جعل أباء المنصور يتقاتلون على الملك ويعيثون في الأرض فساداً.

واستعان أحدهم وهو المأمور بملك الإسبن، فشرط هذا عليه تمكيه من ثغر العرائش فأعطاه إياه ولم يحصل مع ذلك على طائل.

وبقيت المتر مشتعلة فيما بينهم فصلاً عن الثوار الذين بعددوا في هذه المتر واشتبكوا معهم في حروب هائلة إلى أن انقرضت دولتهم سنة 1069.

وفي هذه الأثناء كان العدو المحتل بالشواطئ يقوي مركزه ويتوسع في لبلاد على حساب ضعف المعارضة وتخاذلهم، فالبرتغال قد انتشروا في نواحي الجديدة وصاروا يتحكمون في المسلم كفما شاؤوا.

والإنسان قد امتد نفوذهم من العرائش إلى أصيلا شمالاً والمعمورة جنوباً وأذوا أهل سلا وصيقوا عليهم في المسارح والمزارع. ولولا رجال من بيوت المغرب معروفون بالحدة والشجاعة كانوا يدون عن الحمى ويكفون عادية العدو لكان المغرب قد اكتسح من هذا الوقت، وهؤلاء مثل أولاد القسيس وأولاد أبي الليف والمجاهد أبي عبد الله العياشي، وكذلك يثبت المغرب دائماً أنه شعب خالد يأبى الموت، وأنه إن دالت دولته ونكست رايته ففي أبائه البررة من يرفع رأسه عابياً بين الشعوب ويبصر وجهه بين الأمم، ولله في خلقه شؤون.

المغرب في عهد السعديين

في هذا العهد الأمام جروح المغرب الناشئة من الاحتلال الأجنبي لشواطئه والحروب الأهلية التي لم تقطع مند أواخر أيام المرينيين، فالأجانب وقع صدهم بقوة عن داخل المغرب الذي

كانوا يمتنون أنفسهم بالاستحواذ عليه، وأتصل طردهم من الشواطئ وطُهر منهم الساحل الجنوبي بكامله، ولم يبق بيدهم من الثغور العربية والشمالية عدا الجديدة وطنجة وسبتة واديس، على أنه كثيراً ما وقع التصييق على هذه أيضاً وأنزل المعاربه بحاميتها صربات شديدة.

ولولا أن الدولة كانت تتقي هجوم الأتراك على البلاد برّاً وبحراً وكانوا وقتئذٍ في عنفوان قوتهم وقد استولوا على المغربين الأدنى والأوسط لكانت عملية التطهير للشواطئ المغربي قد أتت على جميع قوات العدو النازلة بأي نقطة من التراب المغربي.

وأما الحروب الأهلية فقد خمدت ثورتها منذ أن مهد لسلطان محمد الشيخ السعدي المغرب، ولم يبق إلا حوادث عادية لم يحل المغرب منها في وقت من الأوقات، لأن طبيعته المُلْك المطلق والاحتتماع المبني على العصبية القبلية يستلزمانها، وكذلك كان الحال في كل بقاع العالم، وما تطهرت أوروبا من هذه الحوادث واستراحت من نتائجها ابوخيمة حتى قامت الثورة الفرنسية في القرن الثامن عشر المسيحي وقررت حق الشعب في حكم نفسه بواسطة نوابه، وحدّت من سلطات الملك، وجعلت لوراثّة العرش نظاماً يُنهي هذا التلاعب الذي يقوم به أفراد طئشون من بيت الملك، فاطمأت الرعية واطمأن الراعي.

وحينما ينقرر الحكم اليابي في المغرب والبلاد الإسلامية على العموم لا بد أن تنحسم مادة هذه الحروب، وتتوفر جهود الأمة

والحكومة على خدمة الصالح العام.

ثم إن حركات الفتح والتوسع التي قام بها المنصور في بلاد السودان والصحراء كان لها التأثير الحسن في نفوس العموم، فالمجاهدون قد انتعشت أرواحهم فشطت أعمالهم في مقاومة العدو، والعلماء والأدباء قد وحدوا في حياة الأمن والدعة ما يحفزهم إلى القيام بمهمتهم التي كانوا قعدوا عنها منذ زمن بعيد، وهؤلاء بوانغ الكتب والشعراء في بلاط المنصور لدهي يتنافسون في القول والتأليف ويتكون منهم وسط أدبي حافل قد بُعد العهد بمثله منذ أيام أبي الحسب المريني وأبي عنان.

وباهيك منهم بعد العزيز الفشتالي الذي يقول المنصور فيه: «منخر به على ملوك الأرض ونباري لسان الدين بن الخطيب» وكم له في فتوح لمصور ومبانيه من الآيات والقصائد الحالدات. والتُّجار قد فُتح لهم مجال واسع لتصرف البضائع وتسمية ثرواتهم فعم البذخ وكثرت الخيرات.

وعلى كل حال فإن الشعب المغربي قد انتعش في هذا العهد وخصوصاً في أيام المنصور انتعاشاً مادياً وأدبياً، وكان يؤمل أن يستمر في طريق التحدده هذه حتى يظهر جميع تراهيه من الاحتلال الأحسي، بل إن أمله كان أوسع من ذلك، فإنه كان يرحو أن يعود إلى فردوسه المفقود بأرض الجزيرة الأندلسية.

ولربما كان فتح المنصور للسودان مقدمة واستعداداً لذلك.

وقد صرّح المنصور بأمله هذا إلى بعض الحصوص في رسالة

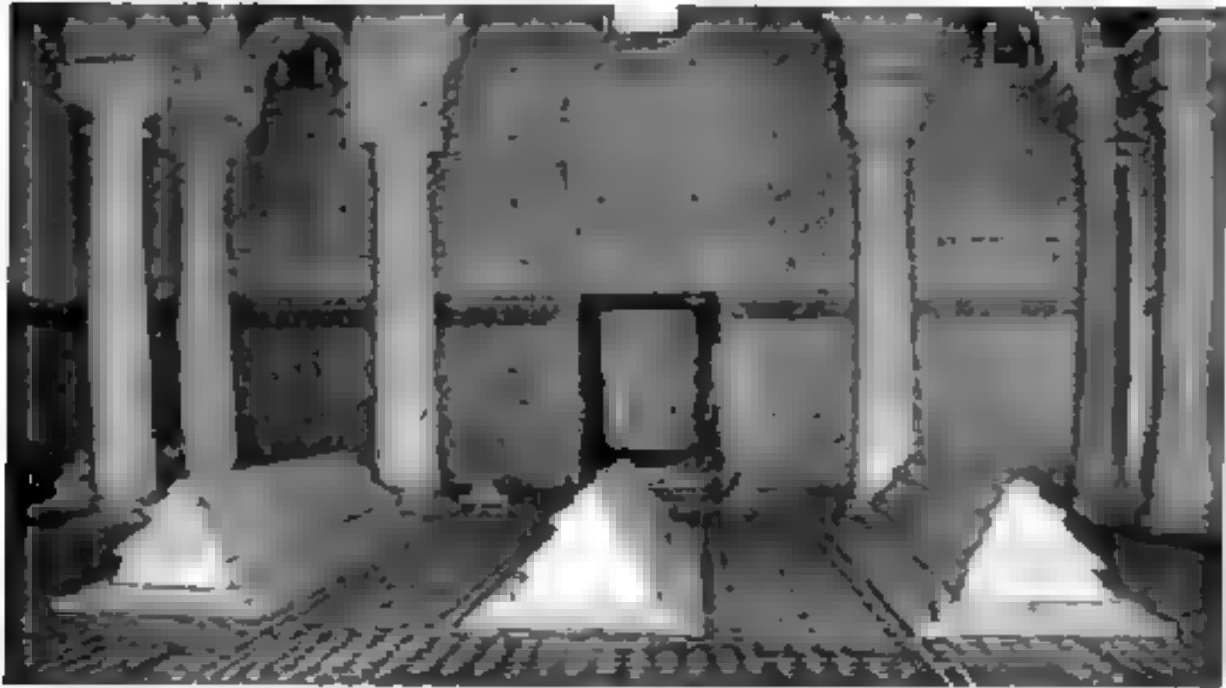
له، ولكنه احترام قبل أن يحقق ذلك، ولكل أحل كتاب.

- أسئلة -

- (1) ما هو أصل السعديين ولماذا اشتهروا بهذه النسبة؟
- (2) ما السبب في قيام هذه الدولة؟
- (3) من هو أول أمير منهم وما هي صفته؟
- (4) من الذي تولى بعده وما هي أعماله؟
- (5) من هو الذي قضى على الدولة الوطاسية وقعد ملك السعديين؟
- (6) اذكر صفات السلطان محمد الشيخ؟
- (7) اذكر حروبه وفتوحه؟
- (8) كيف مات وفي أي سنة؟
- (9) ما هي صفات العال والماثره؟
- (10) كيف كنت سياسته ومتى توفي؟
- (11) من الذي تولى بعده وهل تم له الأمر؟
- (12) كيف توصل المعتصم إلى الملك؟
- (13) ما هي أعمال المعتصم؟
- (14) ما هو السبب في وقعة ودي المحازن؟
- (15) اذكر كيف حرت هذه الوقعة وماذا كانت نتيجتها؟
- (16) ما هي صفات المصور الذهبي؟

- (17) ما هي فتوحه؟
- (18) ما هو أهم عمل قام به لتنظيم الدولة؟
- (19) ما هي آثاره؟
- (20) لماذا لقب بالدهي؟
- (21) متى توفي؟
- (22) ما الذي قضى على الدولة السعدية وفي أي سنة انقرضت؟
- (23) كم كانت مدة حكمها منذ أن تولت إلى أن انقرضت؟
- (24) من الذي كن يقوم بواجب الدفاع عن البلاد في أثناء هذه الفوضى؟
- (25) كيف كان المغرب في هذا العهد من الناحية المادية والأدبية؟

مقبرة الملوك السعديين



هذه الصورة تمثل أحد المناظر
الضخمة البديعة بمقبرة الملوك السعديين في مراكش

الدولة العلوية

دولة ملوكنا الحاليين أدام الله عزهم، وهم أشراف حسنيون عرفوا بالنسبة إلى جدهم الأدي مولاي علي الشريف، وكان قدوم سلفهم إلى المغرب من اليمن بالحجز واستقروا بسحلماسة ومنها قامت دولتهم.

كان المغرب يعيش في فوضى شاملة منذ أواخر أيام السعديين قد تجادب كثير من الثوار حبل السلطة فيه إلى جانب السلطة الشرعية لتي يمثلها صاحب العرش، وباستثناء المحاهدين الذين كانوا قائمين بواجب الدفاع عن حقيقة البلاد، وأهل راية الدلاء لذين حاولوا تأسيس دولة جديدة على أنقاض دولة السعديين فإن جميع الثوار الذين قاموا في هذه الفترة إما كانوا من ذوي الأطماع السافلة وأهل العبث والفساد.

فأما الدلائيون فإنهم كانوا أهل علم وفضل وكاست راوينهم بتادلا مثابة الطلاب والعفة، هؤلاء ليل الرغد وأولئك لأخذ العلم. ثم قام منهم أبو عبد الله محمد الحاج الدلائي داعياً لنفسه في سنة 1046 وتمهد له الأمر وملك مدينة فاس ومكاس وأحوارهما وجميع القطر التادلي، إلا أن الأقدار رمته بمحل من فحول الأشراف العلويين

وهو مولاي محمد بن الشريف الذي قام في نفس الوقت بسجل ماسة لرفع ظلامه كانت حرت على أبيه مولاي الشريف، فلم يلبث أن أطاعته تلك النواحي وصار منافساً قوياً لأهل الدلاء. غير أنه لم يتمكن من القضاء عليهم إلا أخوه مولاي رشيد الذي هو بحق أول ملك من هذه الدولة.

فإنه بعد أن استولى على ما كان بيد أخيه تقدم إلى فاس وحاصرها فدخلها سنة 1076 ثم أوقع بالزاوية الدلائية سنة 1079 وشرّد بأهلها عنها. وفي نفس السنة استولى على مراكش وقتل صاحبها أبا بكر الثاني، وبذلك استهدف له أمر الملك من غير منازع، فصرّب السكة باسمه، وبنى مدرسة رأس الشراطين العظيمة بفاس وقام بغير ذلك من الأعمال المهمة. ثم توفي في 11 حجة 1082.

وكان مهمته كانت جمع كدمة المغرب وتركيز السلطة في يد واحدة فأنتهى عندها وقام أخوه مولاي إسماعيل بمهمة تنظيم الدولة وطرّد الأحناف من شواطئ المغرب.

— مولاي إسماعيل —

هو السلطان المظفر أبو البصر إسماعيل بن الشريف، ولي بعد وفاة أخيه مولاي رشيد وكان حارماً ضابطاً بصيراً ب سياسة الملك وتدير أمر الدولة. فصرف عزمه من أوب يوم إلى توطيد الأمن وتدعيم النظام، ثم اندب لجهاد العدو المستولي على ثغور البلاد فسار إلى المهدية وكانت بيد الإسبان فاستخلصها منهم سنة 1092

كما استخلص طنجة من قبضة الإنجليز سنة 1095 وكانت بصيرت إليهم من البرتغال. وحاصر العرائش وكانت لنظر الإسبان مد أن سلمها لهم المأمور السعدي ففتحها عنوة سنة 1100 كما أطردهم أيضاً من أصيلا سنة 1102 وشدّد الحصار على سبتة وكان الإسبان قد أخذوها من يد البرتغال ولكنه لم يتمكن من أخذها.

وقد فرح الناس بهذه الفتوح العظيمة واسترحاع هذه الشعوب المهمة فرحاً لا يكف، وكانوا من فرط الحزن على ضاعها قد لبسوا الأحذية السوداء بقيت في أرحلهم حتى استردها مولاي إسماعيل هنتزعوها حينئذ، ولبسوا هذه الحال الصفر، وفي ذلك ما يدل على قوة الشعور الوطني والحمية الإسلامية عند القوم.

ثم وجه مولاي إسماعيل نظره إلى بملك الصحراء فاستولى عليها وانتهى من تحوم السودان إلى ما وراء النيل وانتشرت دولته في عمائرهما وبلغ من ذلك ما لم يبلعه المنصور الذهبي، فاشتدت بذلك شوكته وعظم صيته، وهابه ملوك أوروبا ومن دويهم.

وعى مولاي إسماعيل بتأليف جيش العبيد اتحاد اعصية مهم فأعد عسكرياً قوياً من جنس السواد بلغ عدده 150,000 حندي موزعة على القلاع التي بناها بجمع أنحاء المغرب للحراسة وتأمين السبل. وحرّد قبائل المغرب من الخيل ولسلاح ولم يبق من ذلك شيئاً بيد غير العسكر ومجاهدي سبتة، فكان هذا العمل رادعاً لأهل الدعارة والفساد، قاصعاً لأملهم في الخروج على السلطان وترويع أمن البلاد.

وكان لمولاي إسماعيل ولوع كبير بمدينة مكناس فاحذها عاصمته وشيد بها من الآثار العظيمة والمصانع الهائلة ما يقصي منه العجب، ومن حملة ذلك إصطبل واحد مساحته فرسخ في مثله كان به 12000 فرس لكل بيت فرس يخصصه وسائس وحادم، إلى غير ذلك من القصور والساتين والإهراء المعد لخزن الطعام وصهاريج الماء وكل باء هائل، مما صارت به العاصمة الإسماعيلية من المدد الأثرية في المغرب.

وتوفي مولاي إسماعيل بعاصمة مكناس في 28 رجب 1139 بعد أن جلس على عرش لمغرب 57 سنة، فإذا أضيف إليها مدة 7 سنين، كان نائماً فيها عن أخيه مولاي رشيد على ناحية الغرب كان الجميع 64 سنة وهي مدة لم يستوفها أحد من الملوك في الإسلام ما عدا المستنصر العاطمي صاحب مصر فإنه أقام في الخلافة 60 سنة ولكر بينهما نون بعيد، فإن المستنصر ولي وهو ابن 7 سنين فكان في صدر دولته نحت الاستداد ولا كذلك مولاي إسماعيل.

مولاي إسماعيل



تمثل هذه الصورة بطل العائلة
العلوية المالكة السلطان إسماعيل بن الشريف

سيدي محمد بن عبد الله

هو السلطان العظيم فخر الدولة العلوية أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن إسماعيل، بويغ بعد وفاة أبيه مولاي عبد الله في أواخر صفر 1171 وكان المغرب قد أحده البلاء وأنهكت الحروب الداخلية التي نشأت بين أولاد السلطان مولاي إسماعيل طلباً للملك، فلما تولى سيدي محمد بن عبد الله أصفقت كلمة الأمة على طاعته لما كان ظهر منه أيام خلافته عن أبيه على مراکش من حسن السياسة وسداد التدبير.

ولذلك ما لبث أن ضرب على أيدي أهل الفساد وبشر الأمن في البلاد، وساح في مدن المغرب وثغوره حميماً متفقداً أحوالها ومستصلحاً أمورها، فأحسته القلوب، وأحسنت له الجيوب، ورأى أن لا بد من إichاد مداخيل ثلثة سحرينه الدولة، فأحدث بعض الضرائب واستخلص الأعشار على لواردات من الخارج، فانتعشت بسبب ذلك مالية الحكومة، ثم أسحى على حكام الحور ويطابات السوء فستصفى منهم الأموال التي كانوا ابتروها من الضعفاء وأضافها إلى خرينة الدولة، وبدأ يصرف المال حيث في وحوه، ويستحد ما درس أو كاد من آثار عظمة المغرب.

فحصن الثغور والعواصم وشيد الأبراج الهائلة المشحونة بالمدافع والعساكر، وأنشأ السفن الحربية محيياً بذلك الأسطول المغربي الذي كان قضي عليه الإهمال منذ أجيال، وقد بلغ عدد

قطع أسطول له 50 قطعة ما بين كبيره وصغيره وعدد العساكر البحرية فقط 6,000 منها ألغام من المدفعية... فحدث أن قوة بحرية مغربية صادرت مركباً فرنسياً في مياه المغرب سنة 1178 وساقته إلى ثغر العرائش فهاجم الأسطول المرسي ثغري العرائش وسلا ورماهما من مدافعه بنار حامية ولكنه اضطر إلى الرجوع خائفاً لما رمته حاميات الثغرين بصعب ما رماهما به وذلك من نتائج إحياء الأسطول والاهتمام ببحرية المغرب.

وبنى السلطان سيدي محمد بن عبد الله ثغر الصويرة سنة 1178 واعتنى به عناية لا اعتناء سلامة مرساه من الآفات، فكان بناءه من حصر سياسته، إذ أبطل به حصر أكادر ومرساه الذي كان الثوار يتداولونه ويسرحون منه وسق السلع افتياً على الدولة، ثم في سنة 1183 حاصر ثغر الجديدة وكان لا يزال بيد البرتغال ولما ضاق الأمر بمن كانوا فيه طلبوا الأمان فأمنوا على أن يحلوا المدينة ولا يحملوا شيئاً معهم من المتاع فأحلوها ولعموا أرضها بآبارود مكيدة منهم للمسلمين، وباسترجاع هذا البلد المهم لم يبق من أرض المغرب بيد الأحناب إلا سبتة ومليلية، وهاتان المدينتان أنفسهما طالما وإلى المغرب حكومةً وشعباً هجمات عليهما، ولكنه لم يمر منهما بظائل، ولكل أجل كتاب.

ونظر سيدي محمد بن عبد الله في علاقاته مع الدول نظرة حكيمة، فعقد عدة معاهدات مع ملوك أوروبا وغيرها كلها في صالح المغرب حتى كان كثير من الدول الأوروبية يؤدون له إتاوات سنوية

في مقابل المرور بمياه المغرب، أما الدولة العثمانية فقد كان له معها شأن خاص إذ بنى سائر علاقاته معها على التأييد والانتصرة لها فسالم من سالمها وحارب من حاربها، وقدم إليها مساعدات مهمة في كثير من الظروف الحرجة.

وكان لأجل تمتين الرابطة الإسلامية بينه وبين سائر أمراء البلاد الإسلامية لا يزال يواصلهم ويهاديهم وزوج كريمته من الشريف سرور صاحب مكة، واقتدى من الأسرى المسلمين معارضة وغيرهم ممن كانوا بيد الإسبان أو غيرهم ما ناهز 50,000 أسير وهذه هي سياسة الجامعة الإسلامية التي لو جرى عليها ملوك المسلمين لرأوا من أمرهم عجباً.

وللسلطان سيدي محمد بن عبد الله آثار عمرانية كثيرة في غالب مدن المغرب، ويكفي منها مدينة الصويرة بمساجدها ومدارسها وحصونها وكل ما فيها، ومسجد السنة بالرباط وعشرات المساجد والمدارس بغيره، وكان عالماً سلفياً مصلحاً ألف عدة كتب في السنة، وأدخل على برامج التعليم في القرويين إصلاحات مهمة وكان مجلسه حافلاً بأهل العلم والأدب، وهو ممدوح ابن الونان بقصيدته الشمقمقية لمشهورة، وكانت وفاته رحمه الله في 24 رجب 1204 بالرباط.

سيدي محمد بن عبد الله



تمثل هاتان الصورتان
السلطان المصلح سيدي محمد بن عبد الله

مولاي الحسن

هو السلطان المقدس أبو علي الحسن بن محمد بن عبد الرحمن ولي بعد وفاة والده سنة 1290 وقد كان العتو والطغيان صارين أطابهما في قائل المغرب جميعاً، فتمكن بحكمته وحسن سياسته، من تأليف تلك القبائل وإعدادتها إلى حظيرة الطاعة.

واحتهد في إصلاح البلاد والسير بها في طريق الرقي المادي والأدبي خصوصاً فيما تشدد إليه حاجة الدولة لحصص استقلالها وصمان سلامتها، فأرسل فوجاً من الطلبة إلى أوروبا بقصد التخرج في فنون العدم المختلفة، وأسس معملأ كبيراً للسلاح بفاس، واقتنى مراكب بخارية كان يصح جعلها نواة لعمارة بحرية مهمة، وكان في علاقاته مع دول أوروبا دائم التيقظ واحذر لم يسلس قياده لواحدة منها على ما كان يبيده من مزبد الوداد.

وكان لا يفتن من الحوس خلال المملكة، وفي هذه المكرة السديدة ما لا يحمي من توطيد الأمن والاتصال بالرعية والاطلاع على رعايتها ولذلك كان لعامة الشعب تعلق كبير به وحب زائد فيه.

وكان عازماً على ربط أنحاء المملكة بحطوط السكة الحديدية وإنشاء التلغراف وغير ذلك، إلا أنه كان يريد أن يشي ذلك بأيد مغربية وأموال مغربية، خيفة من تلاعب الأحناب وسيطرتهم على المغرب بواسطة هذه المشاريع.

وبالجملة فإن مولاي الحسن قد تسلم المغرب على حالة

من التصعصع والاحلال كاد يصير معها إلى الاصمحلال، فما رال
يرأب من صدعه ويسم من شعثه حتى تحايى واستعش، ولو قدر
للمغرب بعده أن يسير في الطريق التي نتهحها له هذا السلطان
المصلح لكان له اليوم شأن أي شأن، والله غالب على أمره، وتوفي
مولاي الحسن في 3 حجة 1311.

مشاكل المغرب في هذا العهد

من الإنصاف القول بأن مشاكل المغرب بعضها يرجع إلى عهود سابقة وبعضها مما حدث في هذا العهد، فمثلاً احتلال الشواطئ بدأ في أواخر أيام المرينيين وبدأ معه ما يجره الاختلاط بالأجانب من فساد الأخلاق وخراب الدم، وقد كافح الوطاسيون والسعديون ما كافحوا ولم يستطيعوا أن ينفدوا من ثغور المغرب ما أنقده العلويون، ومع ذلك فقد بقيت سببة وملييلة محتلتين تسجلان على المغرب الضعف في الميدان السياسي والحربي.

وكذلك تلاشى الأسطول المغربي الذي كان يقوم بخفر السواحل ويقيم للمغرب هبة في نفوس الأعداء هو داء قديم اعتري المغرب وبسبه تمكن العدو من احتلال ما احتله من الشواطئ وعحر المغرب عن ممانعته، وبقي دفاعه قاصراً على الحصار البري.

ثم إن من أعظم المشاكل التي حدثت في هذا العهد مشكلة الامتيازات الأجنبية التي نشأت مع توالي الأيام بسبب كرم المغرب من جهة وحهل ساسته من جهة أخرى، فإنهم كانوا يرمون مع الدول معاهدات تخولها كثيراً من الحقوق التي وإن كانت الدول في بعض الأحيان تخول مثلها للمغرب إلا أن المغرب لم يكن له جاليات في بلاد تلك الدول حتى تتمتع بتلك الحقوق. وراد في الصيغ لثة حور الحكام، فجعل بعض الرعية يعلقون بنواب الدول لحمايتهم وبذلك تعطل نفوذ الأحكام. وبما أنه ليس لولاية لعرش نظام بل الأمر باقي

على سياسة العصور البائدة وهي أن الملك قائم على التسلط والعلية، فإن كثيراً من العامة فضلاً عن أفراد من البيت المال كـ الشيطان يسول لهم القيام على صاحب العرش، فيكثر الهرح وتعظم الفتنة، ولا يتمكن السلطان الشرعي من عمل أي شيء لصالح البلاد بل إنما تذهب أيامه سدى في مقومة الثاثرين وقصر حناح المفسدين.

وكل هذا كان يحفى على الأحاب ويظنون أن المغرب امبراطورية عظيمة بقيت مدى قرون محافظة على استقلالها ولم تدمج ولا في السلطنة العثمانية التي انتظمت سائر بلاد الإسلام تقريباً فهم بذلك يهابون جانبه، فلما احتلت فرنسا بلاد الجزائر وعجز المغرب عن الدفاع عنها ثم اضطر لأجل الدفاع عن حدوده أن يشتبك معها في وقعة (أبسلي) المشؤومة سنة 1260 فعجز أيضاً عجزاً كئيباً وانهزم جيشه هزيمة شنعاء في أول ساعة اللقاء، انكشف جيشه العطاء، وبرح الحفاء، وطهر أن المغرب أصبح طعمة سائغة لمن أراد أن يتناوله من الدول.

ثم جاءت حرب تطوان أيضاً صعثاً على إبالة، ومسيها كذلك الخلاف على الحدود ما بين سبتة والمغرب، فتقدمت إسبانيا إلى المغرب بمطالب مححفة، ولما لم يقبلها أعلنت الحرب عليه سنة 1276 فرحف الجيش الإسباني من سبتة إلى تطوان فاحتلها بكل سهولة، ثم صار يتقدم إلى الأمام فاضطر المغرب إلى طلب الصلح فكان ما أراد الإسبان من النسليم بمطالبهم في الحدود، ودفع المغرب عرامة حربية قدرها 20,000,000 من الريال الإسباني.

إلا أن هذا المبلغ على صالته بالنسبة لدولة عظيمة كالمغرب لم يكرر في طوق المغرب دفعه بالمرّة، فقيت تطوان بيد الإنسان كضمانة لأداء الدين. وبعد نحو العامين تهيأ للمغرب 8 ملايين واقترض من إنكلترا مليونين فدفع النصف وأحلت الحيوش الإنسانية مدينة تطوان.

ثم جلس الموظفون لإسنان بجب المغاربة في مراسي المغرب يستخلصون النصف من مداخلها وفاء لديهم فلم يستتموه إلا بعد 25 سنة. وكانت هذه الصفقة أعظم ما مي به المغرب من لفصائح في هذا العهد.

ولما طمّ سيل الاميازات الأجنبية وتفاحش أمر الحماية الشخصية طلب لسلطان مولاي الحسن عقد مؤتمر دولي لتنظر في هذه المشكله وحلها حلاً مرضياً للجميع فاعقد مؤتمر مدريد سنة 1297 مثلت فيه جميع الدول ذات المصالح في المغرب وقررت فيه بعض القرارات الصالحة في تحديد الحماية إلا أنه لم يعمل بشيء من ذلك لابطواء الضمائر على الكيد للمغرب.

ثم عقد مؤتمر الجزيرة الخضراء بطلب من السلطان مولاي عبد العزيز رحمه الله 1324 وحصره مندوبو الدول المخلصة وكان نظره في مسألة الإصلاحات التي اقترحت فرنسا إدخالها على الإدارة والمالية في المغرب.

وقد أصفقت فيه كلمة الدول على المغرب وأعطت لفرنسا وإسبانيا حق الإشراف على كثير من المصالح المغربية البحث.

ووقعت حادثة قتل العامة للطبيب (موشان) بمراكش سنة 1325 فاحتلت فرنسا مدينة وحدة ثم احتلت هي وإسبانيا الدار البيضاء في نفس السنة بحجة حماية الأحانب، وهكذا أصبح المغرب على وشك الانهيار. هنالك قامت حركة معارضة قوية للسلطان مولاي عبد العزيز فاضطر للتنازل عن العرش لأخيه مولاي عبد الحميد الذي كان خليفته على مراكش، وكان موصوفاً بالعلم والحرم، فتوجهت إليه الأنظار وبايعه الناس في رجب السنة، ولكنه لم يستطع أن يعمل شيئاً في هذه الظروف الحرجة. ثم وقعت ثورة بني مطير، من القبائل المغربية القوية المراس، على السلطان، وهددوا عاصمة فاس، فاستعان السلطان بالجيش الفرنسي المرابط بالدار البيضاء، ودخل هذا الجيش فاس سنة 1329 فلم يخرج منها بعد.

وبما أن إسبانيا كانت ترى نفسها قرينة فرنسا في العمل بالمغرب فإنها احتلت العرائش وتقدمت منها إلى القصر الكبير، وفي هذه الأثناء كانت فرنسا تعرض على السلطان عقداً للحماية تريد منه إمضاءه والسلطان يسوف ما استطاع التسوية.

ثم وقعت ثورة الجيش المغربي على رؤسائه بهاس فقتل منهم بعض الصباط ومثل بهم، وشاركت العامة الجيش في الاعتداء على بعض الأجانب وأعمال لهدم والإفساد، فأمرت القيادة الفرنسية بصرب المدينة بالمدافع، ولما سكنت الهيعة طلبت من أهل المدينة تسليم ما بيدهم من السلاح، ثم أُلقت القبض على كل من قامت حوله شبهة من شبان فاس وصاديها فأعدمتهم، وهي مذبحه فاس

التاريخية التي أرغم السلطان بعدها على قبول الحماية وإمضاء عقدها في 11 ربيع الثاني 1330 - 30 مارس 1921.

بعد الحماية

حسر المغرب استقلاله لأول مرة في التاريخ منذ دخوله في الإسلام وأصبحت كلمته تبعاً لكلمة الدولة الحامية بعد أن كان صاحب الشأن ورب السلطان.

ومع أن مضمون الحماية هو المساعدة في تنظيم الإدارة والمالية والجيش وفتح الطريق أمام المغرب للتجدد والحياة المدنية مع الاحتفاظ بتقاليده الموروثة وعدم المساس بأي شيء من مقدساته كالدين وما إليه، فإن نواب الدولة الحامية (المقيمين العاميين) لم يسلكوا هذا النهج اللاحب في تطبيق بنود الحماية بل تحطوه إلى الحكم المباشر وتركوا الحكومة المغربية شبه عاطلة، ثم احتصروها إلى أنعد حد فلم يبقوا لها إلا وزيرين اثنين.

وساعد هؤلاء النواب طعمة المعمرين بأموال المغرب وأراضيه الحصبة التي انتزعوها من أصحابها قهراً ففلحوها ودرت عليهم لبناً وعسلاً، وصاروا بعد الصعلكة ملوكاً على الأسرة يستخدمون المعاربة بدراهم معدودة.

ثم حاوروا الحد فهبأوا مشروغاً يقصي بفصل القبائل البربرية من العائلة لإسلامية وأحكام الشرع الشريف وهو ما يُسمى بالظهير البربري الصادر بتاريخ 16 مايو 1930.

هنالك ثارت نائره المعارضة وقاموا عن بكره أبيهم مستنكرين هذه الأعمال وطاليس إيقاف هذه التصرفات، وانتدأت المقاومة السياسية للحماية بعد أن انتهت المقاومة الحربية التي استمرت نحواً من عشرين عاماً في جميع قبائل المغرب، وتألقت أحزاب وطنية وقدمت مطالب شعبية وأخذت قضية المغرب بتردد صداها في عالم السياسة الدولي من جديد.

ومن مساوئ نظام الحماية أنه قسم المغرب إلى قسمين فمنه ما هو تحت النفوذ الفرنسي ويسمى بالمنطقة السلطانية وهو القسم الأكبر من المغرب، ومنه ما هو تحت لنفوذ الإسباني ويسمى بالمنطقة الحليفية، لأن المصلحة السياسية اقتضت أن يقيم جلالة السطان خليفة عه في هذا لقسم، حرصاً على الوحدة المغربية، خصوصاً وهذا الحليفة هو من الأسره المالكة.

وعلى كل حال فإن المغرب تقدم في هذا العهد من الباحية المادية تقدماً محسوساً، أما الباحية المعنوية فإنه لا يزال فيها خالفاً جداً، يكفيه أن تعلم أن المنطقة السلطانية على عناها وسعتها ليس بها إلى الآن إلا ثلاث مدرس ثانوية وليس بها كلية واحدة لأى علم من العلوم عدا كية القرويين الدينية، وعلى هذا فقس.

إنما الأمل كل الأمل في همة جلالة الملك الذي يتزعم الآن حركة الإصلاح في المغرب، ويقود الفئة العاملة لحير الدين والوطن، وفي شهامة ابن عمه وخليفته في القسم الثاني من المغرب، الذي يتوقد حمية، وإخلاصاً للمغرب والحالس على عرشه.



جلالة السلطان المرحوم مولاي يوسف بن الحسن

جلالة ملك العصر سيدي محمد بن يوسف أطل الله بقاءه

ولد سنة 1329 وجلس على العرش بعد وفاة والده مولاي يوسف في 23 جمادى الأولى 1346. ومن جلائل أعماله في الناحية العلمية اهتمامه بأمر جامعة القرويين العامرة وتنظيمه للدراسة بها تنظيماً يكمل توقفاً في مدارج الكمال، فبعد أن حثم عليها الخمول نفح فيها من روحه القوة فانبعثت من حديد تؤدي رسالتها الخالدة في دائرة العروة والإسلام.

ومنها تنظيمه لخزانة القرويين ونحبيسه عليها الكتب المفيدة وتهيئتها ليستفيد منها العام والخاص، وكانت قد اندثرت أو كادت وكذا عمل في مراكش بالنسبة إلى كلية ابن يوسف وحرانتها، ومنها تأسيسه للمدرسة المحمدية الثانوية بمراكش، ومنها تأسيسه للمعهد المولوي بالرباط حيث يدرس سمو ولي عهده وإخوته الكرام، ومنها تأسيسه لعدة مدارس قرآنية بناس وغيرها، ومنها في الناحية الدينية بناءه أو تحديده لعدة مساحد في جميع أنحاء المغرب ولا كالمسجد المحمدي الأعظم بالدار البيضاء، فإن هذا المسجد سيبقى درة في تاج حلالاته تخطف بلمعانها الأبصار، ومنها قضاؤه على بدع وعوائد الطوائف الصالة من أتباع الشيخ سيدي محمد بن عيسى والشيخ سيدي علي بن حمدوش وغيرهم، فإنهم كانوا يقيمون مواسم سوية يأتون فيها من أنواع المكر والتدجيل بما يسود وجه المغرب بل

الإسلام، فأصدر أمره المظاع بمنع تلك المظاهر البشعة، والاقتصار على ما ثبت عن أولئك المشايخ من الأوراد والأدكار. ومنها إحياءه لسنة صلاة الاستسقاء وكانت قد أميتت منذ عصور، ومنها منعه للهيئة المنكرة التي كان يُسلم بها على الملوك من مباشرة الأرض بالوجه واليدين على صفة سجود الصلاة. ومنها في الناحية السياسية معارصته لمشروع السياسة البربرية بحيث لم يمسّ ظهراً من الطهائر الصادرة شأنها، ومنها احتجاجه الرسمي الذي قدمه إلى الحكومة الفرنسية بباريس سنة 1934 لما أسست وزارة فرنسا ما وراء البحار وجعلت المغرب من مشمول نظرها. وأن قيمة هذا الاحتجاج في ذلك الطرف الدقيق لا يقدرها إلا من كان مطلعاً على محريات الأحوال بالمغرب حينذاك. إلى غير هذا مما لو تتبعناه لاحتجنا إلى أفراد بالتأليف، أبقى الله جلاله حامياً للدين والوطن، وحفظ الأمة فيه وفي أحواله الكرام.



جلالة الملك المنصور بالله سيدي محمد بن يوسف



جامع السلطان سيدي محمد بن يوسف
بالدار البيضاء ساعة افتتاحه الرسمي وترى
جماهير المسلمين مزدحمة في صحنه الواسع الأرجاء

صاحب السمو الخليفة المعظم مولاي الحسن بن المهدي حفظه الله

استحلفه حلاله السلطان بعد وفاة وائده مولاي المهدي بسحو
العامين سنة 1344.

ولقد ظفرت هذه المنطقة مه بأعظم ممثل للعرش المغربي
وأكبر محام عن حقوق المغاربة.

وفي أيامه حصل استعمال العدلية الإسلامية عن المراقبة
الإسبانية وحصل كذلك استقلال الأحباس.

ووحدت نهضة علمية مباركة ما زال سموه يمدّها بمساعداته
المادية والأدبية في كل حين.

وأوفدت إلى مصر بعثة علمية تتشرف بحمل اسمه وهي مكونة
من نحو 50 طالباً.

وأسس في مصر بيت المغرب حيث تستقر البعثة المذكورة، وبه
قسم للتبادل الثقافي بين مصر والمغرب.

والأمل في منشآته الجديدة النافعة أوسع من هدا، أدام الله له
العز والرعاية آمين.

* * *



صاحب السمو المعظم مولاي الحسن بن المهدي

أيها الشراء للمعربي! قد عرفت الآن ماريح بلادك ووقفت على مواضع العبرة فيه، ورأيت كيف كانت فيما مضى امراطورية واسعة الأطراف مسموعة الكلمة ذات قوة وحصارة وكيان سياسي متين.

كما رأيت أنها بعد أن توالت عليها صربات الدهر في مختلف العصور لم تهز ولم تستسلم، بل كافحت وحاهدت مشقة وحوادثها معللة عن نفسها أنها لا تصمحل ولا تنعدم، فسر - رعاك الله - على هذا السِّن واعمل كما عمل أسلافك، ولا تيأس ولا تبتئس فإن الله وعد بنصر المؤمنين وجعل العقبي للصابرين.

لا تيأسن وإن طالت مطالبة إذا استعنت بصبر أن ترى فرجا
أخلق بذى الصبر أن يحظى بحاجته ومدمن القرع للأبواب أن يلجا

- أسئلة -

- (1) من أين كان قدوم الأشراف العلويين وفي أي محل استقروا؟
- (2) كيف كان المغرب عند قيام دولتهم؟
- (3) من هو أول ملك منهم؟
- (4) ما هي أعماله ومتى توفي؟
- (5) ما هي صفات مولاي إسماعيل؟
- (6) ما هي فتوحه؟

- (7) إلى أين بلغت دولته جنوباً؟
- (8) كم بلغ عسكره من العيد فقط؟
- (9) ما الذي فعله للضرب على أيدي المفسدين؟
- (10) ما هي آثاره العمرانية بمكناس؟
- (11) متى توفي وكم كانت مدة حكمه؟
- (12) متى تولى سيدي محمد بن عبد الله؟
- (13) ما هي صفاته؟
- (14) ما الذي عمله لإعاش مائة المغرب؟
- (15) ما هي أعماله لإحياء الحرية المغربية وما كانت نتيجة ذلك؟
- (16) ماذا فتحه من البلاد؟
- (17) كيف كنت علاقاته مع الدول؟
- (18) ما هي آثاره العمرانية والعلمية؟
- (19) متى توفي؟
- (20) متى تولى مولاي الحسن؟
- (21) كيف وحد المغرب وماذا عمل لإصلاحه؟
- (22) لماذا كان يحذر من الأجانب؟

- (23) متى توفي؟
- (24) اذكر مشاكل المغرب في هذا العهد؟
- (25) بين عمدا نشأت الامتيازات الأجنبية؟
- (26) اذكر سبب وجود الحماية الشخصية؟
- (27) ماذا كشفت عنه وقعة إيسلي؟
- (28) عمادا نشأت حرب تطوان وما حنى المغرب منها؟
- (29) لماذا عقد مؤتمر مدريد وهل استفاد المغرب من مقرراته؟
- (30) ماذا كانت نتيجة مؤتمر الجزيرة الخضراء؟
- (31) لماذا وقع احتلال وحدة ثم الدار البيضاء؟
- (32) هل تمكن مولاي عبد الحفيظ من إيقاد الموقف؟
- (33) ماذا وقع بعد من الحوادث التي عجلت بالحماية؟
- (34) اذكر تاريخ لحماية؟
- (35) هل طلق نواب الدولة الحماية عقد الحماية كما يحب؟
- (36) ماذا كانت نتيجة تصرفات نواب الحماية الجائرة؟
- (37) اذكر تاريخ ولادة جلالة الملك وتاريخ جلوسه؟
- (38) اذكر أعماله الجليلة في الناحية العلمية... الدينية...

(39) اذكر تاريخ ستخلاف مولاي الحسن بن المهدي؟

(40) اذكر مآثره وأعماله المهمة؟

(41) رأيت ما قام به أسلافك من الخدمات الحليّة للمغرب

فاذكر ما أنت صانع في هذا الصدد؟

فهرس الكتاب

المقدمة	3
الجغرافية	7
أصول السكان	9
البربر	9
المغرب في عهد الفنيقيين	11
الرومان في المغرب	13
هجوم الوندال	18
الاحتلال البيزنطي	19
الفتح الإسلامي	23
الدولة الإدريسية	23
إدريس بن إدريس	24
فاس	26
محمد بن إدريس	27

30	المغرب في عهد الأدارسة
33	جامعة القرويين
39	دولة زناتة من مغراوة وبني يفرن
45	الدولة المرابطية
46	يوسف بن تاشفين
51	مراكش
54	علي بن يوسف
55	المغرب على عهد المرابطين
59	دولة الموحدين
60	خلافة عبد المؤمن
66	يوسف بن عبد المؤمن
67	يعقوب المنصور
75	محمد الناصر
78	المغرب في عهد الموحدين
83	دولة بني مرين
84	يعقوب المنصور المريني
86	أبو الحسن المريني
95	أبو عنان

98	المغرب في عهد بني مرين
102.....	المغرب والدفاع عن الأندلس
109.....	الدولة الوطاسية
115.....	الدولة السعدية
116.....	محمد المهدي
118.....	عبد الله الغالب
119.....	عبد الملك المعتصم
122.....	المنصور الذهبي
128.....	المغرب في عهد السعديين
135.....	الدولة العلوية
136.....	مولاي إسماعيل
140.....	سيدي محمد بن عبد الله
144.....	مولاي الحسن
146.....	مشاكل المغرب في هذا العهد
150.....	بعد الحماية
153.....	جلالة ملك العصر محمد بن يوسف
157.....	صاحب السمو الخليفة المعظم مولاي الحسن بن المهدي
165.....	فهرس الكتاب

ظهر للمؤلف

كتاب النبوغ المغربي في الأدب العربي

شرح الشمقمقية

أدب الفقهاء

التعاشيب

ذكريات مشاهير رجال المغرب